جامعة محمد الخامس بالرباط
كلية علوم التربية

التدريس

مجلة علمية متخصصة محكمة

تصدرها كلية علوم التربية

العدد 8 – السلسلة الجديدة -دجنبر 2016

مفهوم الوثيقة التاريخية
بين المعرفة العالمة والمعرفة المدرسية

محمد صهود *
كلية علوم التربية

ملخص

يتناول المقال مفهوما من المفاهيم المنهجية الأساس في المعرفة التاريخية. والإشكال الذي يطرحه مفهوم الوثيقة ذو بعدين:

أولهما منهجي إبيستمولوجي مرتبط بالمعرفة التاريخية الأكاديمية، حيث خضع المفهوم لتطور تزامن مع تطور الفكر التاريخي والمنهجي التاريخي ذاته. وكان من شأن هذا التطور أن أسهم في بلورة المفهوم من خلال توسيع مدلوله أولا ومن خلال تعميق هذا المدلول ثانيا.

والبعد الثاني بيداغوجي وديداكتيكي، مرتبط بمدى مواكبة الفعل البيداغوجي والديداكتيكي في مختلف تجلياته الوثائقية أساسا لهذه المستجدات في المستوى الأكاديمي. وقد تمت دراسة التوجيهات التربوية للتعليم الثانوي والكتب المدرسية المقررة في بعض المستويات انطلاقا من شبكات للتحليل تم بناؤها استنادا إلى الإطار النظري المبني على أساس المعالجة الأكاديمية.

الكلمات المفاتيح: الوثيقة التاريخية - المعرفة العالمة – المعرفة المدرسية – الوضعانية – التاريخانية.

مقدمة

نقرأ في التوجيهات التربوية والبرامج[1]، ما مضمونه أنها تستحضر« ديداكتيك المادة الذي يبلور التجديد الإبستيمولوجي الذي يعرفه التاريخ كمادة عالمة في موضوعه وأدواته ومفاهيمه المهيكلة».

---

* أستاذ باحث، كلية علوم التربية -الرباط

[1] وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي، مديرية المناهج، **التوجيهات التربوية والبرامج الخاصة بتدريس التاريخ والجغرافيا بسلك التعليم الثانوي التأهيلي**، نونبر 2007، ص. 4.

نريد في هذه الدراسة أن نفحص مدى أجرأة هذا التجديد الإبيستمولوجي الذي تطمح إليه التوجيهات التربوية، وسنقتصر على جانب من جوانب هذا التجديد، ويتعلق الأمر بمفهوم مهيكل وأساس في المعرفة التاريخية، هو "الوثيقة التاريخية". لنتساءل في البداية: هل ما أكدته التوجيهات التربوية في الفقرة المتعلقة بالدعامات الديداكتيكية من "استحضار ديداكتيك المادة الذي يبلور التجديد الإبستيمولوجي الذي يعرفه التاريخ كمادة عالمة"[2] ينطبق على مفهوم الوثيقة التاريخية ؟ وهل ينعكس هذا التحديد في الكتب المدرسية للثانوي التأهيلي؟

قبل فحص وثيقة التوجيهات التربوية وعينة من الوحدات الدراسية بالكتب المدرسية المقررة للثانوي التأهيلي للإجابة عن هذه الأسئلة، يجدر بنا أن نحدد ما هو مفهوم الوثيقة وما موقعها في التفكير التاريخي؟

الإشكال الذي سنقوم بتحليله مزدوج إذن، فهو أولا إشكال منهجي وإبيستمولوجي مرتبط بالمعرفة التاريخية في حد ذاتها وبالتالي بمنهج المؤرخ، وثانيا إشكال بيداغوجي، ولنقل إنه ديداكتيكي، مرتبط بالواقع الديداكتيكي. وسنحلل كل إشكالية من الإشكاليتين في محور خاص.

لذا فإن هذه الدراسة تتضمن لحظتين أساسيتين: الأولى تتعلق بمفهوم الوثيقة في المعرفة التاريخية العالمة، والثانية بهذا المفهوم في المعرفة المدرسية في بعض تجلياتها.

1. مفهوم الوثيقة التاريخية وموقعها في المعرفة العالمة Savoir savant

تحتل الوثيقة التاريخية، باعتبارها من مخلفات الماضي، وضعا مركزيا بل استراتيجيا في كتابة التاريخ. وإذا كان الأمر كذلك فماذا نعني بالوثيقة في إطار المنهج التاريخي؟

لن يكون تحديد مفهوم الوثيقة في المنهج التاريخي بسيطا، لأننا سنضطر إلى محاولة استقراء مفهوم الوثيقة التاريخية انطلاقا من رصد طبيعة المعرفة التاريخية وتطورها وخصوصية المنهج التاريخي. وسنسلك في هذا التحديد مسلكا يزاوج بين رصد التطور التاريخي لمفهوم الوثيقة في علاقة بتطور المنهج التاريخي ذاته، وبين

[2] المرجع نفسه، ص. 4

الحفر المعرفي للمفهوم في وضعه الحالي خصوصا مع الدراسات الإبيستمولوجية المعاصرة.

نبدأ بالقول إنه يمكن التمييز بين لحظات أساس في تطور مفهوم الوثيقة وكذا وضعها ضمن إطار البحث التاريخي:

- مرحلة ما قبل التاريخ الوضعاني؛
- الوثيقة التاريخية: بين الوضعانية والتاريخانية؛
- الوثيقة التاريخية: من التاريخ الجديد إلى الدراسات الإبيستمولوجية المعاصرة.

1.1. ما قبل التاريخ الوضعاني

من المتداول أن استعمال كلمة "مصدر " Source، للدلالة على المادة التي يستعملها المؤرخ لبناء المعرفة التاريخية، يعود إلى "توسيديدس" Thucydide الذي أعلن عن مصادره في كتابة تاريخ الحروب البيلوبونيزية. أما إخباريو العصر الوسيط فلم يهتموا بإثبات مصادر أخبارهم، بخلاف الرهبان الذين احتفظوا بالمخطوطات والمواثيق.[3]

على أن القرن 16 شهد موجة لتأسيس مظان الوثائق Dépôts d'archives، وفي هذه المرة من قِبَل مختلف المؤسسات أو الدولة، وبذلك تضاعفت الأرشيفات الوطنية المكونة من موارد وثائقية، وصارت شيئا فشيئا في متناول الباحثين خاصة بعد الثورة الفرنسية. على أن هذه الثقافة التوثيقية، إن جاز التعبير، بقيت مستقلة عن الإنتاج التاريخي إلى أن كان القرن التاسع عشر.[4]

1.2. بين الوضعانية والتاريخانية

لقد تطور المنهج الوضعاني في كتابة التاريخ واكتمل خلال القرن التاسع عشر، ضمن السياق العام الذي تطورت فيه الوضعانية في سائر العلوم الحقة والعلوم الاجتماعية. هكذا نظر المؤرخون الوضعانيون، الذين كانوا يطمحون إلى أن يصبح

[3] J. LEDUC, V. MARCOS-ALVAREZ, J. LE PELLEC, *Construire l'histoire*. Collection didactique, Bertrand-Lacoste, 1994, p. 37.
[4] *Ibid.*, p. 38.

التاريخ علما، إلى دور الوثيقة في كتابة التاريخ على أنه مماثل لدور المادة في بناء المعرفة العلمية من قِبل العالِم الطبيعي وتفسيره، وهم في كل ذلك كانوا يحاولون الابتعاد عن التأويلات الفلسفية والتنظيرات العامة التي التصقت بالكتابة التاريخية لفترة من الزمن. وقد فسح التصور الوضعاني لمفهوم الوثيقة ودورها في بناء المعرفة التاريخية المجال لازدهار النقد التاريخي وتطوره في أفق إنتاج معرفة تاريخية تتسم بالموضوعية بشكل لا يقل موضوعية عن المعرفة العلمية الحقة.

1.2.1. من المنظور الوضعاني...

سنحلل المنظور الوضعاني للوثيقة انطلاقا من ثلاثة عناصر هي أولا علاقة الوثيقة بالاستكشاف الوثائقي، وثانيا كون الوثيقة موضوعا للمعرفة التاريخية وأداتها ودليل بنائها، وثالثا علاقة الوثيقة بالنقد التاريخي:

أ. الوثيقة ومرحلة الاستكشاف الوثائقي

يؤكد "مارو" أن المؤرخ ليس هو « من يصوغ إشكاليات فقط ويبني فرضيات ... بل من يتوفر على برنامج عملي يمكنه من إبراز وثائق عديدة وأكثر موثوقية وأكثر كشفا».[5] إنه الاستكشاف الوثائقي. هكذا فبعد صياغة المؤرخ للإشكالية يشرع في البحث عن الوثائق، وهي مرحلة شاقة وحاسمة في آن واحد. وعلى العموم فللاستكشاف مصدران هما شهود العيان الذين يعاصرون حدثا ما، وهنا يكون الاعتماد أساسا على المرويات الشفهية؛ ثم المجاميع الوثائقية المتوفرة في الأرشيفات والمكتبات...[6]

على أن الاستكشاف ليس عملية ميكانيكية صرف، تقتصر على البحث عن الوثائق أو إيجادها، بل هو فن ذو قواعد وأدوات عمل...[7]، ويتأثر أساسا بشخصية المؤرخ وثقافته.

---

[5] H. I. Marrou, *De la connaissance historique*, Editions du Seuil , 1975, p. 69.

[6] شارل لانجلوا وشارل سنيوبوس، ترجمة عبد الرحمان بدوي، **النقد التاريخي**، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة 4، 1981. ص. 6-7.

[7] H. I. Marrou, Op.cit., p. 70.

ب. الوثيقة: موضوع المعرفة التاريخية وأداتها ودليل بنائها

يقول لانغلوا وسنيوبوس: « التاريخ يصنع من وثائق. والوثائق هي الآثار التي خلفتها أفكار السلف وأفعالهم»، و«حيث لا وثائق فلا تاريخ»[8]، ويقول "رانكه": أن التاريخ هو« تصوير ما حدث بالضبط»[9] ويقول "فوستيل دو كولانج": أن « لا تاريخ بدون نصوص»، فهو « علم لا يتخيل بل يرى. وهو نظير كل علم ينظر إلى الأحداث ويحللها ويقارن بينها ويحقق الروابط القائمة بينها، والمؤرخ يبحث عن الحدث ويدركه بدراسة النصوص بإمعان ودقة، والطريقة واحدة في كل علم مؤسس على الملاحظة الدقيقة»[10].

نستخلص من هذه التحليلات والتعريفات إذن أن المنظور الوضعاني يرهن كتابة التاريخ بمدى توافر هذه الوثائق، وبمدى الثقة التي تحققها، كما أنه يعمم مفهوم الوثيقة على كل الآثار التي يخلفها إنسان الماضي. على أن هناك تنسيبا لهذه المعرفة التي تتحقق بدراسة الوثائق، وذلك بتقديمها على أنها لا توصل إلى اليقين بل تقوي الافتراضات، وفي هذا الصدد يقول "مارو" متحدثا عن المنهجية الوضعانية: « ينبغي أن يستخلص المؤرخ الحقيقة التاريخية من الوثيقة، ولكن الأخيرة لا تثبت بشكل قطعي حدوث الواقعة، إذ أن النقد لا يمكن أن يحدد إلا المصداقية التي تستحقها شهادة الوثيقة... ولكن إذا تمكنا من تجميع شواهد عديدة ... فإن احتمال حقيقة حدوث الواقعة يصبح كبيرا وينتهي بالوصول إلى المعرفة اليقينية . »[11].

فضلا عن ذلك فالوثيقة، في نظر الوضعانيين، هي في آن واحد موضوع الماضي وأداة المؤرخ والدليل على علمية التاريخ[12]؛ فهي موضوع للماضي من حيث كونها تنتمي للماضي ومن مخلفاته وتشهد عليه، وهي أداة للمؤرخ من حيث كونها المادة الأولية التي يبني المؤرخ التاريخ بواسطتها، وهي دليل علمية التاريخ من حيث إن المعرفة التاريخية لا تكتسب مشروعيتها إلا عبر الصرامة المنهجية التي يتم إعمالها في دراسة الوثائق وتحليلها.

---

[8] لانجلوا سنيوبوس، م. س. ص.5.

[9] ورد عند شاكر، «مصطفى التاريخ، هل هو علم؟ » **عالم الفكر**، 1974 ، ص. 188.

[10] المرجع نفسه، ص. 188

[11] H. I. Marrou, 1975 ; Op.cit., p. 122-123.

[12] J. LEDUC, V. MARCOS-ALVAREZ, J. LE PELLEC, *Construire l'histoire*. Op.cit., p. 39.

ويجتاز المؤرخ الوضعاني عادة، في علاقة بالوثيقة التاريخية، مرحلتين: مرحلة الاستكشاف التي تناولناها في فقرة سابقة، ومرحلة النقد التاريخي.

ج. الوثيقة ومحك النقد التاريخي

مر بنا أن المؤرخ يتعامل مع الوثيقة، باعتبارها مادة أولية لبناء المعرفة التاريخية، من خلال عملية النقد. ويتضمن النقد التاريخي خطوتين أساسيتين هما النقد الخارجي والنقد الباطني.

نميز في النقد الخارجي بين نقد الثقة والمصدر حيث ينظر إلى هوية الشاهد وتحديد طابع الوثيقة وذلك من خلال عمليات إجرائية معروفة عند المؤرخ المحترف، وبين نقد التحصيل الذي يشمل حتى النصوص غير الأصيلة. أما النقد الباطني فيتضمن خطوتين فرعيتين هما التأويل ويستهدف مضمون الوثيقة بالضبط عن طريق التجرد من الأحكام المسبقة واستحضار وثائق أخرى في نفس الموضوع والاستعانة بعلوم أخرى، والخطوة الفرعية الثانية هي النقد السلبي الذي يستهدف كشف الحقائق وتمييزها عن الأحداث التي تختلط بعمليات ذهنية أو قناعات فكرية ومذهبية.

ويستعين المؤرخ في نقد الوثيقة بعلوم متنوعة تسمى عادة علوما مساعدة. عموما هناك ثلاثة علوم أساسية: علم الخطوط paléographie وفقه اللغة philologie وعلم الوثائق diplomatique.[13]

1.2.2. ... إلى المنظور التاريخاني

على أن المنظور التاريخاني الذي تبلور في مقابل هذا التصور الوضعاني ما فتئ يبرهن على محدودية المعرفة التاريخية الوضعانية المستندة إلى الأساس الوثائقي.

ويمكن القيام بتمييز منهجي بين الوضعانية والتاريخانية دون أن ننسى التفاعل الممكن بينهما، وعلى العموم تتسم الوضعانية، مقارنة بالتاريخانية، بما يلي:

أ. محدودية المعرفة التاريخية الوضعانية من وجهة نظر التاريخانيين

واجه التصور الوضعاني للوثيقة انتقادات من قبل التاريخانيين؛ ذلك أن مفهوم الوضعانيين للوثيقة له علاقة وطيدة بالنصوص الرسمية المحفوظة والبقايا

[13] في هذا الباب الببليوغرافيا متنوعة ويمكن الإحالة على سبيل المثال لا الحصر إلى المصدر السابق للانجلوا وسنيوبوس ثم: Genicot, *Critique historique*, LOUVAIN-LA-NEUVE, 1979

الأركيولوجية، وهو مفهوم ذو طابع سياسي تأثر بالسياق التاريخي للقرن التاسع عشر. ومعلوم أن هذا القرن تبلورت فيه القوميات والصراعات السياسية، فضلا عن كونه فترة وافقت تكوين المؤرخين. ولهذا السبب انتُقِدت المدرسة الوضعانية في حقل المعرفة التاريخية بكونها مدرسة الحروب والعقود.[14]

ب. ذاتية المؤرخ أو التماهي / التقمص Empathie /Sympathie مقابل النقد الجاف

يعتبر التاريخانيون المنظور الوضعاني قاصرا، لأنه يقتصر على تحقيق الحدث ووصف سيرورة وقوعه انطلاقا من هذه الوثائق. وهم يرون أن الموضوعية التي يبحث عنها المؤرخ الوضعاني عن طريق التجرد وأخذ مسافة من الأشخاص والوقائع والأحداث التاريخية تجعله في موقع بعيد عن أن يفهم هذه الوقائع والأحداث فهما حقيقيا. إن فهم التاريخ في نظر التاريخانيين يقتضي التماهي/ التقمصEmpathie مع شخصيات الماضي للنفاذ إلى عمق الوقائع والأحداث بواسطة هذا التماهي/التقمص، وليس بواسطة النقد الجاف للوثائق. وبعبارة أخرى فالتماهي/التقمص، أو التعاطف Sympathie عند البعض (مارو)، هو استثمار لذاتية المؤرخ ممثلة في شخصيته وثقافته ومعارفه وكل ما يساعده على فهم سلوك إنسان الماضي وتفكيره.

ج. ذاتية المؤرخ والسؤال الإشكالي

لقد برهن التاريخانيون على استحالة بناء المعرفة التاريخية بعيدا عن كل ذاتية للمؤرخ. لا يتصور التاريخانيون تاريخا بدون مؤرخ. لقد عنون مارو فصلا بكامله بـــ: " المؤرخ غير منفصل عن التاريخ". لذلك يحمل تعريف مارو للوثيقة التاريخية بصمات هذا المنظور التاريخاني فهو يعتبر أن «الوثيقة هي كل مصدر للأخبار يتمكن من خلاله فكر المؤرخ من استخلاص شيء من أجل معرفة الماضي البشري منظورا إليها من زاوية السؤال المطروح. وشيئا فشيئا يتسع المفهوم لكي يشمل نصوصا وآثارا وملاحظات من كل نوع»[15]

يعتبر التاريخانيون إذن أن مفهوم الوثيقة، كما يتصوره الوضعانيون، بسيط نسبيا؛ إذ أنه يحيل على التحقق من وقوع الأحداث والوقائع ووصفها كما وقعت بكل

---

[14] عبد الله العروي، **مفهوم التاريخ**، الجزء الأول، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1992، ص. 19.

[15] H. I. Marrou, 1975, Op.cit., p.73

موضوعية انطلاقا من دراسة هذه الوثائق «فما دام البحث مرتبطا بمجال بسيط نسميه التاريخ الحدثي، فإنه من السهل تحديد ما هي الوثيقة المناسبة، لكن الأمر يأخذ في التعقيد وفي الضبابية أكثر حينما نتجاوز التحقق المادي لحقيقة واقعة تاريخية معينة (أي حقيقة المظهر الخارجي للنشاط الإنساني)، فنبحث عن بدايات هذه الأحداث ونهاياتها، أسبابها وانعكاساتها، دلالتها وقيمتها (للفاعلين والمعاصرين [...] ولنا نحن)»[16].

هكذا تبدو محدودية مفهوم الوثيقة عند الوضعانيين حسب ما يراه التاريخانيون، وهي في نظرهم محدودية ذات علاقة بالمفهوم العام للتاريخ.

على أن مفهوم الوثيقة سيشهد تحولا مع ظهور مدرسة الحوليات والتاريخ الجديد خصوصا في ظل التلاقح بين التاريخ ومختلف العلوم الاجتماعية بل حتى مع العلوم الدقيقة.

1.3. من التاريخ الجديد إلى الدراسات الإبيستمولوجية المعاصرة

إن التحول الأساس في نظرنا لمفهوم الوثيقة، في إطار التاريخ الجديد، وقع في مستويين:

المستوى الأول تمثل في توسع المفهوم وهو توسع أفقي، أي شموليته لأنواع جديدة من الوثائق خصوصا كلما تم الاحتكاك والتلاقح مع علوم اجتماعية وحتى مع علوم حقة؛

والمستوى الثاني تمثل في تعقد المفهوم، ويمكن القول إنه توسع عمودي ينفذ إلى عمق المفهوم بحيث أحدث فيه خلخلة جعلت المفهوم يتخذ أبعادا جديدة عمقت من مفهوم الوثيقة.

1.3.1. توسع مفهوم الوثيقة في سياق تطور المنهج التاريخي والتلاقح مع العلوم الاجتماعية

سنركز في هذا التوسع على التلاقح مع الجغرافيا ثم علوم الآثار و السوسيولوجيا أو الإثنولوجيا..

---

[16] *Ibid.*, p.72

أ. المشهد الجغرافي: اللقاء بين التاريخ والجغرافيا

شكل تطور مفهوم الوثيقة عند الحوليات ثم عند التاريخ الجديد فيما بعد نقلة نوعية، فقد توسع هذا المفهوم ليشمل المشهد الجغرافي. إن اعتبار المشهد الجغرافي بمثابة وثيقة يضرب جذوره في العلاقة بين التاريخ والجغرافيا، وبعبارة أخرى فإنه يدل على الارتباط الوثيق بين الزمان والمكان في دراسة التاريخ. و« العلاقة بينهما (بين التاريخ والجغرافيا) لا نختزلها في مجرد العلاقة بين تخصصين أكاديميين أو مادتين دراسيتين بل نعتبر هذه العلاقة ذات بعد تأويلي للظواهر والأحداث الإنسانية. فاللقاء بينهما منذ بدايته لم يكن آليا بل نتج عن ضرورات تأويلية.»[17]

ويعطي "مارو" مثالا يتعلق بدراسة تاريخ البنيات الزراعية في فرنسا، مع مارك بلوك وروجي ديون، (الحقول المفتوحة، التناوب الزراعي الثلاثي...)، قائلا: «إن مشهدا منظورا إليه من الطائرة أو محللا على خريطة بمقياس كبير هو وثيقة تاريخية بالنظر إلى أنه يمكننا أن نرى فيه شيئا آخر غير الانعكاسات المرتبطة بالقوانين الطبيعية (علم الجيولوجيا، علم التربة، علم المناخ، علم النباتات...) ونتعرف فيه على تدخل الإنسان[18]

ب. الأثر المادي: اللقاء بين التاريخ والأركيولوجيا

في ظل الفضول المعرفي الذي شهده القرنان 16 و17م، كانت المخلفات الأركيولوجية لا تمثل سوى جزء من المعرفة ... ومع ذلك لم يعد هذا الفضول يهتم بالتمييز بين ما ينتمي إلى الطبيعة وما ينتمي إلى الثقافة ... ولم تكن الدول الأوروبية غير الأسكندنافية لتتوفر على تشريعات ومؤسسات أركيولوجية إلا في وقت متأخر. لم تكن أوروبا، خلال الجزء الأكبر من العصور الحديثة، تولي للمكونات المادية لماضيها سوى مكانة محدودة قبل أن تغير الصراعات القومية مكانة الأركيولوجيا وتجعلها في قلب النقاشات التاريخية.[19]

---

[17] محمد صهود، "الخريطة التاريخية، من التأصيل الإبيستمولوجي للمفهوم إلى تعريف الحدث التاريخي من منظور التأويل الجغرافي"، **المربي**، المجلة الجزائرية للتربية، العدد 18، ص. 10.

[18] Marrou, 1975,Op.cit., p. 73-74

[19] A. Schnapp. « Archéologie », In : André Burguière (Sous dir.) *Dictionnaire des sciences historiques* , PRESSES UNIVERSITAIRE DE France , 1986, p. 61-62.

فالتاريخ إذن لم يعد يكتب بالنصوص والمأثورات المجمعة بعناية ولكننا نكتشفه عبر الأنساق المادية، والمخلفات البيولوجية، وأنواع المخلفات سواء منها التي توجد تحت الأرض أو فوقها، التي تشهد على الإنسان الذي سبقنا[20]

ج. الشهادة الشفهية: اللقاء بين التاريخ والإثنولوجيا والسوسيولوجيا

يبدو أن مفهوم التاريخ الشفهي مقتبس من الباحثين الأمريكان الذين كانوا سباقين لإعادة الاعتبار للنص الشفهي كمصدر تاريخي أصيل. [21] وقد بدأ التاريخ الشفهي الحديث في الثلاثينيات من القرن العشرين بالولايات المتحدة الأمريكية مع بحث ضخم أشرفت عليه السلطات الفيدرالية حول ذاكرة العبيد السود، وانطلاقا من هنا عم هذا المنهج مجموع أوربا الغربية. ويمكن تفسير الرجوع إلى هذه التقنية التاريخية القديمة في عالم تسوده الكتابة إلى عاملين؛ هما تطورات المجتمعات الغربية بعد أن تزايدت الاتصالات الشفهية بتكاثر وسائل الاتصال الحديثة، ثم تحولات المعرفة التاريخية بحيث أصبحت ميادين المؤرخ الجديدة تفرض عليه استعمال الأدوات الشفهية (تاريخ الحياة اليومية، التقنيات...)[22]

على أنه ينبغي استحضار سياق آخر ويتمثل في انفتاح التاريخ على باقي العلوم الاجتماعية في ظل الحوليات والتاريخ الجديد، سواء من حيث الموضوع أو المنهج، حيث كان من نتائج هذا الانفتاح استثمار وثائق هي من صلب أدوات الإثنولوجي أو عالم الاجتماع وهي الرواية الشفهية، على الرغم من الموقف المتعنت أو المتحفظ الذي يبديه المؤرخ تجاه الشهادة الشفهية [23].

والشهادات الشفهية « هي آثار الماضي المحفوظة في ذاكرة البشر الأحياء في صورة ذكريات وأيضا في صورة تمثلات ذهنية ومواقف وسلوكات وإيماءات تنقلها الثقافة.» [24] ويمكن اعتبار المصادر السمعية (الصوتية) ضمن الشهادات الشفهية،

---

[20] *Ibid.*, p. 60.

[21] JOUTARD, «Histoire orale», in *Dictionnaire des sciences historiques*, André Burguière, (dir), Paris, 1986. 2004 ترجمة محمد حبيدة، **من أجل تاريخ إشكالي**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية القنيطرة، ص. 105.

[22] *Ibid*,. ص. 106

[23] Mostafa Hassani Idrissi, *Pensée historienne et apprentissage de l'histoire*, L'Harmattan, 2005 , p. 89.

[24] *Ibid.*, p. 89.

التي هي مصدر أساس بالنسبة إلى مؤرخ الزمن الحاضر... وهكذا تزود الوثائق الإذاعية بخزان هائل من المصادر[25]

وعموما فقد أسفر الانفتاح على العلوم الاجتماعية عما يأتي:

- تعدد أنواع الوثائق وبالتالي توسع مفهوم الوثيقة. لم تعد الوثيقة المكتوبة هي المادة الأولية الوحيدة التي يكتب التاريخ بناء عليها بل نجد إلى جانبها المشهد الجغرافي والأثر المادي والشهادة الشفهية. أكثر من هذا فقد ساهم الانفتاح على علوم دقيقة مثل البيولوجيا أو علوم أخرى مثل علم النفس والاقتصاد في ظهور أنواع جديدة من الوثائق. نجد مؤرخا مثل عبد الله العروي في كتابه مفهوم التاريخ وبالضبط في القسم الثالث "تاريخيات" يتعرض إلى أنواع الوثائق ويجعل منها أصل تصنيف الإسطوغرافيا (تاريخيات) فيميز « أنواع الكتابة بأنواع الشواهد المعتمدة»[26].

- التوجه الإشكالي والموضوعاتي للبحث التاريخي جعل المؤرخ يتصور وسائل الإثبات المتمثلة في الوثائق قبل الحصول عليها.

مجمل القول أن مفهوم الوثيقة عرف توسعا أفقيا حيث طال أنواعا عديدة بحكم اللقاء مع باقي العلوم والمعارف من جهة، وبحكم تقدم البحث التاريخي من جهة ثانية. ويبقى أن نتساءل مع كل هذه التحولات التي عرفها مفهوم الوثيقة، هل نبقي على المصطلح العربي " وثيقة" أم نستبدله بمصطلح آخر كالذي اقترحه عبد الله العروي وهو الشاهدة، على اعتبار أن الوثيقة تحيل في التقليد العربي على المكتوب:]». [27] إلى جانب هذا التوسع الأفقي يمكن الحديث عن توسع عمودي أو تعقد للمفهوم بحكم تطور البحث التاريخي وظهور أنواع جديدة من الوثائق.

1.3.2. تعقد مفهوم الوثيقة

لقد مر بنا أن المؤرخ الوضعاني هو الذي أصل لمفهوم الوثيقة وموقعها الاستراتيجي في البحث التاريخي. لقد ازداد توسع مفهوم الوثيقة وتعقد بشكل لافت، واتخذ هذا التعقد مستويات:

---

[25] *Ibid*, p. 93.

[26] عبد الله العروي، 1992 ، ص. 97.

[27] المرجع نفسه ، ص. 82.

أ. المستوى الأول: الوثيقة المهيأة أو الولادة الثانية للوثيقة التاريخية

لقد قادت الممارسة المنهجية المؤرخ، في ظل تطور التاريخ الجديد، إلى الكشف عن نوع من الوثائق لا يمكن اعتماده إلا عبر معالجته معالجة خاصة، مما يؤدي إلى تحول الوثائق الأصلية إلى سند فقط لتكوين وثيقة يهيئها المؤرخ حتى يتمكن من قراءتها وتحليلها واستخراج ما يمكن استخراجه من معطيات ووقائع. لقد غير التاريخ السلسلي Histoire sérielle مفهوم الوثيقة بعمق؛ ففي بعض الظواهر التاريخية (مثل الظاهرة الديمغرافية أو الاقتصادية عموما)، لم تعد الوثيقة تكتسب قيمتها في ذاتها بل في علاقتها بالسلسلة فتصبح لها قيمة نسبية، كما أنها لا تنقد خارجيا في علاقتها بباقي الوثائق ولكن بتجانسها مع وثائق من نفس النوع.[28] وفي هذا السياق فللكشف مثلا عن التطور الديمغرافي لمنطقة أو جهة ما يُعتمد على سجلات التعميد مثلا في الكنائس التي تتضمن المواليد، ولكن هذه السجلات لا يمكن أن نستخرج منها المعطيات إلا بعد تحولها إلى جداول تطورية وبذلك تصبح هذه الجداول بمثابة وثائق مهيأة.

الوثائق المهيأة إذن هي « وثائق تاريخية أعدها وهيأها المؤرخون انطلاقا من عدد من المصادر. من المصادر المهيأة ما يرمي إلى إعادة تركيب بعض أوجه الماضي ومظاهره (نماذج مجسمة تجسد مآثر ومدنا ومعارك)، إعادة تركيب ألحان موسيقية وإعداد أطباق من الطعام استنادا إلى وصفات قديمة، وإعادة تركيب نصوص ضائعة من قبل محققين متخصصين، وهناك أيضا الوثائق التي يهيئها المؤرخ من أجل التعبير عن بنيات (جداول، خرائط، مقاطع...) أو عن تطورات (منحنيات، مبيانات...)[29]

ب. المستوى الثاني: خطاب الوثيقة منظورا إليه من زاوية المفاهيم اللسانية والسوسيولوجية

لم تعد الوثيقة حاملة لذاكرة أو وقائع أو أحداث تكشف عنها قراءة مستندة إلى أسس النقد التاريخي، بل هي أداة خاضعة لقراءة من زوايا أخرى كالزاوية اللسنية والسوسيولوجية التي تتجاوز الاستخراج التقني للمعطيات إلى الكشف عن المستور

[28] O. Dumoulin. « Document », In : André Burguière (Sous dir.) *Dictionnaire des sciences historiques* , PRESSES UNIVERSITAIRE DE France , 1986, p. 205.

[29] Mostafa Hassani Idrissi, *Pensée historienne et apprentissage de l'histoire*, Op.cit. , p. 94.

والمستبطن والذي لا تفصح عنه الوثيقة بشكل سافر بل يستخرج بالتحليل اللسني والسوسيولوجي والأنتربولوجي.

لننطلق من مثال مرتبط بالمجتمع الشيوعي السوفياتي السابق؛ يعرف المؤرخون الذين درسوا المجتمع السوفياتي أنه كان صامتا بصرف النظر عن نصوص الجرائد والبيانات. وينبغي فهم خطابات تلك الحقبة ضمن مستويات متعددة: ما هو مصرح به وما هو ليس كذلك، التعابير المستعملة والمكرورة وتلك التي تم السكوت عنها، الجمهور المستهدف علنا والمستهدف بشكل مضمر. وفضلا عما تقوله الخطابات أو تضمره، فإن لها وظائف متعددة: فهي ذات نزعة مطلبية ولكن طقوسية أيضا وإجتماعية؛ وتستطيع أن تتجه إلى إحياء ماضي مشترك أو خلق تمثلات ذهنية موجهة، بمفعول مرآة عاكسة، نحو الطمأنة وإعطاء صورة "إيجابية" وموحِّدة لمجتمع منقسم.[30] هذا يعني أنه ينبغي إعادة بناء/قراءة الوثيقة في ضوء تحليل أنتربولوجي للمجتمع الشيوعي. فعلى المؤرخ، إذ يكون مدعوما بمفاهيم سوسيولوجية ولسانية، أن يقوم ببناء مادته الوثائقية المتضمنة لنصوص وملصقات ومقتبسات من أفلام وحوارات. ولكن كل الوثائق والآثار تكون خاضعة لإعادة البناء.[31]

ج. المستوى الثالث: ارتباط الوثيقة بالكيفية التي يدبر بها المجتمع تاريخه

تولدت هذه النظرة للوثيقة ضمن هذا المستوى في غمار الحفر الإبستمولوجي الذي مارسه بعض الفلاسفة في المعرفة التاريخية وحاولوا تثوير هذه المعرفة. في هذا السياق يمكن الاستشهاد بمشيل فوكو Michel Foucault الذي دعا إلى تجاوز المفهوم الأداتي للوثيقة وعدم الاطمئنان إلى معالجتها على أساس أنها ذاكرة تختزن ماضيا يمكن استرجاعه وبناؤه، واعتبارها أداة تقتضي النفاذ إلى مكنونها وفحصها من الداخل وتعديد مستويات القراءة. لننصت إليه في هذا النص المعبِّر:

« لكن التاريخ، بفعل تحول لم يكن وليد اليوم، ولم يكتمل بعد بلا شك، عدل من موقفه تجاه الوثيقة، فأخذ على عاتقه كمهمة أولى، لا تأويل الوثيقة أو تعيين مدى صدقها، وقيمتها التعبيرية، بل فحصها من الداخل وتدبرها فهو ينظمها ويجزئها ويرتبها ويقسمها إلى مستويات، ويقيم سلاسل، ويميز ما يستحق النظر عما لا

[30] J. LEDUC, V. MARCOS-ALVAREZ, J. LE PELLEC, *Construire l'histoire*. Op.cit., p. 42
[31] *Ibid*., p. 42.

يستحقه، ويرصد عناصر، ويعين وحدات ويصف علاقات. لم تبق الوثيقة بالنسبة للتاريخ، تلك المادة الخام التي يسعى من خلالها إلى استعادة ما صدر عن الناس من أقوال وأفعال، واسترجاع ما ولى ولم يترك سوى أثر يلزم اقتفاؤه. إنه يسعى إلى أن يحدد وحدات داخل النسيج الوثائقي، ويعين فيه مجموعات وسلاسل وعلاقات.»[32]

على أن مفهوم الوثيقة اصطبغ عند مؤرخ محترف، سطع اسمه في ابيستمولوجيا التاريخ ومنهجيته، بصبغة تشاؤمية ميزت نظرته لعلم التاريخ، فالوثيقة مع السرد الذي يؤطرها، في نظره، ليست هي الواقعة أو الحدث التاريخي بل هي رؤية لهذه الواقعة أو الحدث التاريخي ، فـــ« ما يسميه المؤرخون واقعة أو حدثا لا يدرك بشكل مباشر و كامل بل إدراك غير تام ومن جانب واحد، عبر الوثائق والشواهد، ولنقل عبر الآثار [...] فالمعرفة التاريخية هي في جوهرها معرفة عن طريق الوثائق. ويأخذ السرد مكانه بعد كل الوثائق، ذلك أنه لا يستطيع أي منهما أن يكون هو الواقعة أو الحدث. والمعرفة التاريخية ليست تركيبا لمشاهد مصورة وثائقية ولا تطلعنا على الماضي كما لو كنا نعيشه.» [33]

خلاصات عن مفهوم الوثيقة في المعرفة العالمة

الخلاصة الأولى: نستنتج من هذا التحليل أن الوثيقة التاريخية عرفت توسعا وتعقدا وتحولا في المستوى الإبيستيمي، تمثل في تعدد أنواع الوثائق التي نوجزها في: الوثيقة المكتوبة؛ الأثر المادي؛ المشهد الجغرافي؛ المصادر السمعية ؛ المهيأة.

الخلاصة الثانية : بناء على هذا التعدد الناتج عن التوسع فإنه يجوز القول أن لا وجود لوثيقة مجردة. فالوثيقة تختلف هويتها ومجالها وبالتالي تختلف حتى طرق معالجتها التي تقتضي في معظم الأحيان الاستعانة بخبير لفك رموزها. هل هذا يعني تشظي مفهوم الوثيقة وبالتالي تشظي المعرفة التاريخية؟ لا نعتقد ذلك، بل كل ما يمكن قوله أن المعرفة التاريخية، بناء على الوثائق وتجدد مفهومها وتطور قراءتها ومقاربتها، تعمق معرفتنا بالماضي البشري.

---

[32] ميشيل فوكو، **حفريات المعرفة**، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2005، ص. 8- 9.

[33] Paul Veyne, *Comment on écrit l'histoire*, Editions du Seuil, 1979, p. 14-15.

2. الوثيقة التاريخية في المعرفة المدرسية Savoir scolaire

إن المعرفة المدرسية وإن كانت تستمد مشروعيتها من المعرفة العالمة فإنها لا تختزل فيها. فضلا عن ذلك فإن المعرفة المدرسية مفهوم معقد ينطوي على مكونات تمتح، إلى جانب المعرفة العالمة، من القيم المجتمعية والمؤسسية.

سنقارب مفهوم الوثيقة التاريخية وموقعها في المعرفة المدرسية أولا من خلال تحليل مضمون التوجيهات التربوية لمادة التاريخ والجغرافيا بالتعليم الثانوي التأهيلي، وهي منطلق بناء منهاج المادة، وثانيا بتحليل مضمون عينة من وحدات الكتاب المدرسي.

وحتى تنسجم مقاربة مفهوم الوثيقة التاريخية في المعرفة المدرسية مع ما حللناه في المعرفة التاريخية العالمة عبر تجلياتها المنهجية والإبيستمولوجية، يجدر بنا الانطلاق من التصنيف الذي انتهينا إليه لوضع تصنيف للوثائق في ضوئه.

ويمكن أن نقترح ما انتهينا إليه في التصنيف الآتي: الوثيقة المكتوبة؛ الشهادة الشفهية؛ الأثر المادي؛ الوثيقة المهيأة.

وانطلاقا من محاولة للتبيئة والتكييف مع الواقع الديداكتيكي ومع المعرفة المدرسية سنعالجها وفق تصنيف فرعي يأخذ بعين الاعتبار خصوصية الوضعية الديداكتيكية. (أنظر الجداول أسفله).

وستشكل هذه الأصناف مكونات الشبكة التي تتضمن المؤشرات التي سنقوم بقراءة التوجيهات التربوية والكتب المدرسية في ضوئها.

2.1. في التوجيهات التربوية

سنقوم بقراءة التوجيهات التربوية قراءة وصفية أولا ثم قراءة تحليلية نقدية بعد ذلك.

2.1.1. قراءة وصفية

تصنف التوجيهات التربوية الدعامات الديداكتيكية إلى صنفين: دعامات شائعة الاستخدام وأخرى مرتبطة بالتكنولوجيات الحديثة، وتورد النصوص التاريخية ضمن الدعامات الشائعة الاستخدام. وقد وضحت المبادئ العامة لاستثمار هذه النصوص

وشروط هذا الاستثمار والتدابير الديداكتيكية ومواصفات النصوص التاريخية[34] . وهي مبادئ وشروط بيداغوجية عامة، غير مؤسسة على أسس منهجية تمتح من التجديد الإبيستمولوجي والمنهجي للمادة. وبذلك تكون التوجيهات قد تبنت معيارا يبتعد عن المؤشرات المنهجية والإبيستمولوجية.

2.1.2. قراءة نقدية

أ. إن "استحضار ديداكتيك المادة الذي يبلور التجديد الإبستيمولوجي الذي يعرفه التاريخ كمادة عالمة في موضوعه وأدواته ومفاهيمه المهيكلة" المعلن في المرجعية الديداكتيكية لم يتم احترامه بصدد عنصر الدعامات الديداكتيكية، بحيث نجد التصنيف المعتمد، على الرغم من مشروعيته البيداغوجية العامة، فإنه يبتعد عن المنطق الداخلي لمادة التاريخ الذي يتجلى في منهجيته وإبيستمولوجيته؛

ب. على الرغم من الإعلان الصريح عن المرجعية البيداغوجية (المقاربة بالكفايات والمقاربة البنائية العامة للتعلم) والمرجعية الديداكتيكية (المنطق الداخلي للمادة) فإن التوجيهات التربوية لا تعلن عن مصادرها المنهجية والمعرفية الكفيلة بتوضيح المرجعيات المعتمدة للمدرس ومنحه فرصة الاطلاع على هذه المراجع والمصادر. ويبدو أن التوجيهات التربوية تنطلق من كونها مرجعية لذاتها دون أن تكلف نفسها الإحالة على المراجع والمصادر التي شكلت أساس التوجيهات؛

د. إن إيراد الدعامات والوثائق في التوجيهات التربوية لا ينبغي أن ينحصر في العموميات البيداغوجية بل ينبغي أن يصب أساسا في الفوائد الديداكتيكية بالتحديد وكيفية الاستعمال في الفصل وكيفية الإعداد ومن المستحب أن يتم ذلك في جدول واضح.

الخلاصة أن التوجيهات التربوية لا تصدر عن خطاب ديداكتيكي محدد ومتناسق الأجزاء والعناصر بل هو خطاب يتضمن الكثير من العموميات البيدغوجية، كما أنه لا يشكل أداة ديداكتيكية عملية واضحة لأجرأة المنهاج وتنزيله على أرض الواقع.

2.2. في الكتاب المدرسي

سنحلل الكتاب المدرسي متبعين خطوتين؛ الأولى سنقدم فيها الأداة التي اعتمدناها وعينة الكتب المدرسية المعتمدة ثم عينة الوحدات المعنية، وفي الخطوة الثانية سنقدم

[34] **التوجيهات التربوية**...، مرجع سابق...، ص. 30-34.

نتائج تحليلنا لمفهوم الوثيقة في الكتاب المدرسي انطلاقا من العينة المختارة، باستثمار المؤشرات الإحصائية الخاصة بالإحصاء الوصفي، لنخلص بعد ذلك إلى خلاصات في هذا الباب.

2.2.1. تقديم

أ. تقديم الأداة

إن الأداة المستثمرة مبنية على الخلاصات التي تم التوصل إليها في تحليل مفهوم الوثيقة في خطاب المعرفة التاريخية العالمة، بحيث قمنا برصد أصناف الوثائق التي يوظفها المؤرخ في بناء المعرفة التاريخية. وعلى الرغم من أننا لا نماثل بين دور كل من المؤرخ والمتعلم إلا أن بناء المعرفة التاريخية المدرسية لابد أن يستوحي منطق بناء المعرفة التاريخية عند المؤرخ. (أنظر الجداول 1 و 2 و 3 و 4).

وتجدر الإشارة إلى أنه صودفت وثائق ودعامات موثقة بمواقع إلكترونية وهي على كل حال نادرة جدا. ومسألة استثمار الإنترنيت تحتاج إلى نقاش أكاديمي وديداكتيكي، يستحسن أن يرجأ إلى مناسبة أخرى.

ب. تقديم الكتب المدرسية المعتمدة

لقد وقع اختيار الكتب المدرسية الخاصة بالسنة الثانية من سلك البكالوريا، وهي مخصصة لمسالك الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الشرعية واللغة العربية بالتعليم الأصيل والعلوم الاقتصادية وعلوم التدبير المحاسباتي والعلوم الزراعية، ومصادق عليها من لدن وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي.[35]

ج. تقديم عينة الوحدات المعتمدة في التحليل

يبلغ عدد الدروس في البرنامج 16 وحدة إضافة إلى 4 ملفات. وهي تشمل التحولات الكبرى في العالم من نهاية الحرب العالمية الأولى إلى مطلع القرن 21. وقد تم اختيار وحدة من كل محور من المحاور الأربعة:

- الوحدة 2 في المجزوءة 1 المحور1: العالم غداة الحرب العالمية الأولى؛

---

[35] - **الجديد في التاريخ**، جماعة من المؤلفين، دار نشر المعرفة، الرباط، 2007.
- **الشامل في التاريخ**، جماعة من المؤلفين، إفريقيا الشرق، 2007.
- **في رحاب التاريخ**، جماعة من المؤلفين، مكتبة السلام الجديدة والدار العالمية للكتاب، 2014.

- الوحدة 6 في المجزوءة 1 المحور 2: المغرب تحت نظام الحماية؛
- الوحدة 3 في المجزوءة 2 المحور 1: النظام العالمي الجديد والقطبية الواحدة؛
- الوحدة 6 في المجزوءة 2 المحور 2: الحركات الاستقلالية بالمشرق العربي.

2.2.2. قراءة نقدية

سنسلك في هذه القراءة مسلكا منهجيا يوازن بين الملاحظات العامة التي تهم الكتب المدرسية الثلاث، وبين ما يخص كل كتاب على حدة. وهكذا سيخصص الجدول 1 للملاحظات العامة حول المؤشرات التي تم اقتراحها لكي توجه هذه القراءة النقدية، والجدول 2 و 3 و 4 كل واحد منها لكتاب مدرسي محدد.

أ- تعليق على معطيات الجدول 1:

بالنسبة للنصوص المكتوبة:

- من حيث العدد الإجمالي للوثائق والدعامات الديداكتيكية نجد أن كتاب "الجديد" يتصدر القائمة بـــ % 36 وثيقة ودعامة من مجموع وثائق الكتب الثلاث، يليه في "رحاب" بـــ % 34، ثم "الشامل" بـــ % 30.
- ويأتي في مقدمة الوثائق والدعامات النصوص المكتوبة بـــ (% 54) تليها الوثائق والدعامات المهيأة بـــ (% 26)، ثم الدعامات الإيكونوغرافية بـــ (% 20). أما الشهادات الشفهية فشبه منعدمة % 0.61، على الرغم من أن الأمر يتعلق بالحقبة المعاصرة.
- ضمن النصوص المكتوبة تشكل النصوص المرجعية حوالي (% 58) من النصوص المكتوبة مقابل (% 21) بالنسبة لكل من الوثائق الأصيلة و النصوص المصدرية. ومعلوم أن المنهج التاريخي ينصب أساسا على الوثائق الأصيلة والنصوص المصدرية، والتي تقع فيها محاكاة منهج المؤرخ في إنتاج المعرفة التاريخية. أما النصوص المرجعية فهي لمؤرخين وبالتالي تعتبر هي نفسها تحليلا وقراءة نقدية للوثائق الأصيلة والنصوص المصدرية.
- وإذا قمنا بمقارنة بين الكتب المدرسية الثلاث سنجد بأن "في رحاب" تشكل النصوص المرجعية % 54 والمصدرية % 26 والأصيلة % 20، أما في "الشامل" فتشكل النصوص المرجعية (% 78) والمصدرية (% 16)

والأصيلة (% 6)، وفي "الجديد" النصوص المرجعية (% 47) والمصدرية (% 18) والأصيلة (% 35).

بالنسبة للوثائق والدعامات المهيأة

- عموما تشكل الدعامات المهيأة نسبة أكثر بقليل من الوثائق المهيأة (% 55 مقابل % 45)؛
- وتطغى الدعامات المهيأة على الوثائق المهيأة في كتابي "الشامل" (% 57) مقابل (% 43)، و"الجديد" (% 59) مقابل (% 41)، بينما تطغى الوثائق المهيأة على الدعامات المهيأة في كتاب "في رحاب" (% 52) مقابل (% 48)؛
- ومن حيث الترتيب نجد "الجديد" في المرتبة الأولى يليه "الشامل" وأخيرا "في رحاب".

بالنسبة للدعامات الإيكونوغرافية:

- تبقى الصور الفوتوغرافية هي الطاغية بـــ(92%)، والكاريكاتور بـــ(% 8)، وتشكل الكاريكاتور (% 7) في رحاب و (% 14) في الجديد، وتنعدم الرسوم. وتتقارب الكتب المدرسية نسبيا في هذا الجانب.

بالنسبة للشهادات الشفهية فهي شبه منعدمة (% 2 في رحاب)، على الرغم من أن الأمر يتعلق بالحقبة المعاصرة.

ب- تعليق على معطيات الجدول 2

بالنسبة للنصوص المكتوبة

- نبدي الملاحظة العامة نفسها والمتعلقة بطغيان المكتوب أي النصوص المكتوبة، (% 64)، وبهيمنة النصوص المرجعية (% 54) على الوثائق الأصيلة (% 20) والنصوص المصدرية (% 26)، مع استثناء الوحدة 4 حيث تهيمن الوثائق الأصيلة بـــ (% 47) مقابل (% 20) مصدرية و(% 33) مرجعية.

وبالنسبة للوثائق والدعامات المهيأة

- تأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد النصوص المكتوبة، كما هو الشأن بالنسبة للمجموع الإجمالي للكتب الثلاث.

- وتعتبر الوثائق المهيأة أكثر من الدعامات المهيأة (% 52 مقابل % 48) باستثناء الوحدة 2، حيث تكثر الدعامات المهيأة (% 78 مقابل % 22).
- أكثر الوحدات من حيث الدعامات المهيأة الوحدة 2 بـ (% 78) وأكثرها من حيث الوثائق المهيأة الوحدة 3 (% 75).

أما الدعامات الإيكونوغرافية:

- تهيمن الصور بـ (% 93). وتعتبر الوحدة 3 أكثر الوحدات من حيث الدعامات الإيكونوغرافية بـ (% 17)، والوحدة 4 أقلها بـ (% 5). أما الرسوم فهي منعدمة، والكاريكاتور بالوحدة 3 (% 16).

الشهادات الشفهية توجد شهادتان الأولى في الوحدة 2 والثانية في الوحدة 3.

ج- تعليق على معطيات الجدول 3

بالنسبة للنصوص المكتوبة

- نبدي الملاحظة العامة نفسها والمتعلقة بطغيان المكتوب أي النصوص المكتوبة، (% 51)، وبهيمنة النصوص المرجعية (% 86) على الوثائق الأصيلة (% 08) والنصوص المصدرية (% 06)، مع تسجيل ملاحظة حول الوحدتين 3 و4 بدون وثائق أصيلة، والوحدتين 1 و3 بدون نصوص مصدرية.

وبالنسبة للوثائق والدعامات المهيأة

- تأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد النصوص المكتوبة (% 29)، كما هو الشأن بالنسبة للمجموع الإجمالي للكتب الثلاث.
- وتعتبر الدعامات المهيأة أكثر من الوثائق المهيأة (% 61 مقابل % 39) باستثناء الوحدة 1، حيث تتساوى بـ % 50 لكل منهما.
- أكثر الوحدات من حيث الوثائق المهيأة الوحدة 1 بـ (% 50) وأقلها الوحدة 2 (% 34).

أما الدعامات الإيكونوغرافية:

- لا وجود إلا للصور وهي تحضر بـ (% 100) من مجموع الدعامات الإيكونوغرافية، وتعتبر الوحدة 3 أكثر الوحدات من حيث الدعامات الإيكونوغرافية بـ (% 47)، والوحدة 1 أقلها بـ (% 5).

الشهادات الشفهية منعدمة.

د- تعليق على معطيات الجدول 4

بالنسبة للنصوص المكتوبة

- نبدي الملاحظة العامة نفسها والمتعلقة بطغيان المكتوب أي النصوص المكتوبة، (% 47) ، وبهيمنة النصوص المرجعية (% 48) على الوثائق الأصيلة (% 34) والنصوص المصدرية (% 18). والوحدتان 2 و 4 بهما نصوص مرجعية أكثر (% 50 و % 82)، أما الوحدتان 1و 3 فتشكل فيهما الوثائق الأصيلة (% 54 و % 66).

وبالنسبة للوثائق والدعامات المهيأة:

- تأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية (% 29) بعد النصوص المكتوبة (% 47)، كما هو الشأن بالنسبة للمجموع الإجمالي للكتب الثلاث.
- وتعتبر الدعامات المهيأة أكثر من الوثائق المهيأة (% 59 مقابل % 41). باستثناء الوحدة 1، حيث تتفوق الوثائق المهيأة (% 58)، بينما في الوحدة 4 لا وجود لوثيقة مهيأة.
- أكثر الوحدات من حيث الوثائق المهيأة الوحدة 1 (% 58).
- **أما الدعامات الإيكونوغرافية:**
- تهيمن الصور بـ (% 86). وتحضر الكاريكاتور بـ (% 14)، بينما تنعدم الرسوم. أما الوحدة 4 فتنعدم فيها الرسوم والكاريكاتور.

الشهادات الشفهية منعدمة.

خلاصة التحليل الكمي والنوعي للوثائق والدعامات بعينة الكتب المدرسية

- هيمنة المكتوب المتمثل في النصوص المكتوبة، مقارنة مع باقي الوثائق والدعامات. إن التوسع الذي عرفه مفهوم الوثيقة، والذي أشرنا إليه بصدد تحليل مفهوم الوثيقة في المعرفة التاريخية العالمة، يقتضي مسايرته ديداكتيكيا بالتوسع في هذا المفهوم وبالموازنة بين مختلف الوثائق والدعامات. وهذا لا يعني في تصورنا، إيرادها بنفس النسبة من الناحية الكمية، ولكن البحث عن معادلة تجعل هذه الوثائق والدعامات حاضرة بشكل متناسب مع وضعها في البحث التاريخي

أو في المعرفة التاريخية العالمة. فإذا كانت المصادر التي يكتب على أساسها التاريخ اليوم هي مادية ومهيأة وشفهية فضلا عن المكتوبة، فإن هذا الوضع ينبغي مواكبته ديداكتيكيا.

- هيمنة النصوص المرجعية ضمن هذا المكتوب، وهو أمر لا يساير التوجه المعلن عنه؛ أي الانطلاق من المرجعية الديداكتيكية التي تمتح من التجديد المنهجي والإبيستمولوجي الذي تعرفه المادة. فإذا كان التاريخ يكتب انطلاقا من وثائق ومصادر، وإذا كان المبدأ هو اتباع منحى المؤرخ وتكييفه مع المستوى العقلي والعمري للتلميذ، فإن هذا ينبغي أن يتجسد أولا في مستوى انتقاء الوثائق والدعامات الذي ينبغي أن يتجه نحو الوثائق الأصيلة والنصوص المصدرية. ولا يعني إغفال النصوص المرجعية أو الإعراض عنها بل ينبغي إيرادها حسب السياق الذي تقتضيه الوضعية الديداكتيكية. فمن المعلوم أن النص المرجعي هو في أول الأمر ونهايته تحليل للوثائق الأصيلة والنصوص المصدرية واشتغال عليها بمنهج تاريخي معين والتوصل إلى سرد الوقائع والأحداث التاريخية كنتاج لهذا المنهج، ولذلك لا يمكن معالجته ديداكتيكيا كما تعالج الوثائق الأصيلة والنصوص المصدرية، فالنص المرجعي ديداكتيكيا يحيلنا على قراءة معينة للوثائق والمصادر، وبالتالي ينبغي معالجته على هذا الأساس واختيار الوضعية المناسبة أو السياق الديداكتيكي المناسب. صحيح أن الأمر ليس من السهولة بمكان، ولكن المبدأ هنا واضح في التمييز بين مستويات الوثيقة (أصيلة، مصدر، مرجع). فاللجوء إلى النصوص المرجعية متاح بشكل أيسر ولكن ينبغي الانتباه إلى تبعاته الديداكتيكية في اتجاه الإبقاء على نوع من الانسجام بين الفكر التاريخي كما يمارس منهجيا وبين الوضعيات الديداكتيكية.
- ويثير غياب الشهادات الشفهية الاستغراب خاصة أن الأمر يتعلق بالحقبة المعاصرة. والواقع أن مسألة الشهادات الشفهية مسألة معقدة لا في المستوى الديداكتيكي فحسب بل حتى في المستوى الإسطوغرافي والمستوى المنهجي الإبيستمولوجي. نعرف بأن الشهادات الشفهية لا تستقبل بنفس الترحيب عند المؤرخين بالنظر لطبيعتها وارتباطها بالتموقع المنهجي الذي يبديه المؤرخ (وضعاني، تاريخاني، تاريخ جديد...)، على الرغم من إعادة الاعتبار لها حسب بعض المدارس (الأمريكية في البداية). ونعتقد أن هذا الوضع غير المستقر للشهادة الشفهية في البحث التاريخي يرخي بظلاله على المستوى الديداكتيكي

بمختلف تمظراته (توجيهات تربوية، كتب مدرسية، تمثلات الأساتذة، واقع الممارسة الفصلية...). أما في المستوى الديداكتيكي فإن أول ملاحظة تتبدى هي أن هذه الشهادات ترد في حامل مكتوب. وبالتالي ينبغي تحديد حدود التماس بين النصوص المكتوبة أصلا بكل أنواعها التي ذكرناها سابقا وبين هذه الشهادات الشفهية الواردة في حامل مكتوب.

- وإذا كانت الدعامات الإيكونوغرافية تلائم الوضعيات الديداكتيكية في هذا المستوى التعليمي الذي نتحدث في إطاره، فإنها تنسجم أيضا مع المنطق الداخلي للمادة، حيث يستثمر المؤرخ اليوم مختلف الوثائق بما فيها الإيكونوغرافية. على أنه وبالرغم من ورودها بنسبتها التي تم تحديدها إلا أن ورودها غير متوازن بالنظر لمكوناتها (صور، رسوم، كاريكاتور)، ثم إنها ترد هكذا دون خلفية منهجية وديداكتيكية، والأمر يتضح في الصور أكثر، فالصور الواردة هي في غالبها صور شخصية مرفقة ببعض الوثائق والنصوص، ولا يظهر بأنها وردت للاستثمار الديداكتيكي بل كدعامة توضح بصريا صاحب النص.... لذا ينبغي تطوير مسألة إيراد الصور خصوصا والدعامات الإيكونوغرافية عموما في اتجاه الابتعاد عن طابعها الذيلي للوثائق إلى طابع الوثيقة التي تتطلب القراءة المنهجية، والتي تنتهي باستخراج المعطيات التاريخية وتأويلها عبر هذه القراءة. وهذا لا يعني حذف الصور الشخصية أو الصور بشكل عام، ولكن التمييز بين الصور التي ترفق ببعض الوثائق والتي قد تحيل على صاحبها أو على معطى متعلق بالوثيقة، وبين الصور التي ترد من أجل القراءة المنهجية. وينبغي أن يكون ذلك في نوع من التوازن الذي يتلاءم وطبيعتها وقدرتها على إعطاء مزيد من المعطيات التاريخية عبر الاستثمار المنهجي.
- أما الوثائق والدعامات المهيأة فعلى الرغم من أنها تأتي في الرتبة الثانية بعد النصوص المكتوبة، فإنه ينبغي الوعي بخلفيتها الإبيستمولوجية والديداكتيكية. فكما أن المؤرخ ينشئ وثائقه المهيأة كما وضحنا بصدد المعرفة التاريخية العالمة، فالديداكتيكي ينشئ دعاماته الديداكتيكية. يختلف الوضعان من حيث النوايا والمقاصد والمنهجية والطريقة، ولكن في الأوضاع التدريسية يستعمل النوعان. وفي هذا الباب فإن المقاربة الديداكتيكية لتناول هذا النوع من الوثائق والدعامات تقتضي الاستعانة بالترسانة البيداغوجية المتوفرة والتي توضح كيفية استثمارها ديداكتيكيا.

خلاصات عامة

لنستحضر السؤال المطروح في مقدمة هذه الدراسة والمتعلق بمدى استحضار التوجيهات التربوية للتجديد الذي عرفته المرجيعية الديداكتيكة للمادة الدراسية كمادة عالمة (التاريخ)، خاصة فيما يتعلق بمفهوم الوثيقة التاريخية. وطرح السؤال أيضا بالنسبة للكتب المدرسية باعتبارها حاملة للمعرفة المدرسية التاريخية.

لقد اتضح من التحليل السابق أن الإعلان عن استحضار ديداكتيكية المادة كمبدإ لم ينعكس على مضمون المكونات الديداكتيكية للتوجيهات التربوية، فضلا عن إغفال هذه الأخيرة لمصادرها ومرجعياتها المتعلقة بهذا الجانب، وهكذا فعلى الرغم من تجديد الخطاب الديداكتيكي للتوجيهات التربوية بصورة عامة، فإن هذا التجديد ينبغي أن ينعكس على التناول والمعالجة الديداكتيكيين لكل مكون من المكونات ومن بينها الوثيقة التربوية كمفهوم وكصنف وكدعامة.

أما بالنسبة للكتاب المدرسي فقد لاحظنا هيمنة النصوص المكتوبة، وأكثر من ذلك هيمنة النصوص المرجعية مقارنة مع الوثائق الأصيلة والنصوص المصدرية، وفي هذا انزياح للمعرفة التاريخية المدرسية عن منحى المنهج التاريخي الذي ينصب على الوثائق الأصيلة والنصوص المصدرية، وتبقى النصوص المرجعية حاضرة في سياقات بيداغوجية خاصة.

وعلى الرغم من أن بعض الحقب (الحديث والمعاصر) عرفت ظهور وثائق من نوع جديد (صور، رسومات، كاريكاتور، شهادات شفهية...) فإن حضور هذه الأنواع لا يعكس أهميتها المنهجية والإبيستمولوجية والإسطوغرافية، بالنظر لخصوصية هذه الحقب.

ملحق يتضمن أربعة جداول

جدول 1: توزيع أصناف الوثائق والدعامات على عينة الكتب المدرسية الثلاث

	النصوص المكتوبة			الشهادات الشفهية	الدعامات الإيكونوغرافية			الوثائق والدعامات المهيأة		المجموع
	وثيقة أصيلة	نص مصدري	نص مرجعي		صورة فوتوغرافية	رسم	كاريكاتور	وثيقة مهيأة	دعامة مهيأة	
في رحاب التاريخ	14 «%20»	18 «%26»	38 «%54»	02	13 «%93»	00	01 «%7»	12 «%52»	11 «%48»	[34 %] 109 (100 %)
	[40%] 70 (64 %)			02 [100%] (02 %)	[23 %] 14 (13 %)			[27 %] 23 (21 %)		
الشامل في التاريخ	03 «%6»	08 «%16»	39 «%78»	00	19 «%100»	00	00	12 «%43»	16 «%57»	[30 %] 97 (100 %)
	[29 %] 50 (51 %)			00	[30 %] 19 (20 %)			[33 %] 28 (29 %)		
الجديد في التاريخ	19 «%35»	10 «%18»	26 «%47»	00	25 «%86»	00	04 «%14»	14 «%41»	20 «%59»	[36 %] 118 (100 %)
	[31 %] 55 (47 %)			00	[47 %] 29 (25 %)			[40 %] 34 (28 %)		
المجموع	36 «%21»	36 «%21»	103 «%58»	00	57 «%92»	00	05 «%8»	38 «%45»	47 «%55»	[100 %] 324 (100 %)
	[54 %) 175 [100 %]			02 [100%] (0·61)	[20 %) 62 [100 %]			[26 %) 85 [100 %]		

جدول 2: توزيع أصناف الوثائق والدعامات على عينة كتاب: في رحاب التاريخ

الوحدات	النصوص المكتوبة			الشهادات الشفهية	الدعامات الإيكونوغرافية			الوثائق والدعامات المهيأة		المجموع
	وثيقة أصيلة	نص مصدري	نص مرجعي		صورة فوتوغرافية	رسم	كاريكاتور	وثيقة مهيأة	دعامة مهيأة	
1	01 «%10»	03 «%30»	06 «%60»	00	02 «%100»	00	00	05 «%72»	02 «%28»	[17 %] 19
	[14 %] 10 (53 %)			00	[14 %] 02 (10 %)			[31 %] 07 (37 %)		(100 %)
2	03 «%15»	07 «%33»	11 «%52»	01	05 «%100»	00	00	02 «%22»	07 «%78»	[33 %] 36
	[30 %] 21 (59 %)			01 [50 %] (02 %)	[36 %] 05 (14 %)			[39 %] 09 (25 %)		(100 %)
3	03 «%12»	05 «%21»	16 «%67»	01	05 «%84»	00	01 «%16»	03 «%75»	01 «%25»	[32 %] 35
	[34 %] 24 (69 %)			01 [50 %] (03 %)	[43 %] 06 (17 %)			[17 %] 04 (11 %)		(100 %)
4	07 «%47»	03 «%20»	05 «%33»	00	01 «%100»	00	00	02 «%67»	01 «%33»	[17 %] 19
	[22 %] 15 (80 %)			00	[07 %] 01 (05 %)			[13 %] 03 (15 %)		(100 %)
المجموع	14 «%20»	18 «%26»	38 «%54»		13 «%93»	00	01 «%7»	12 «%52»	11 «%48»	[100%] 109 (100 %)
	[40%] 70 [100 %] (64 %)			02 [100 %] (02 %)	[100 %] 14 (13 %)			[100 %] 23 (21 %)		

جدول3: توزيع أصناف الوثائق والدعامات على عينة كتاب: الشامل في التاريخ

الوحدات	النصوص المكتوبة			الشهادات الشفهية	الدعامات الإيكونوغرافية			الوثائق والدعامات المهيأة		المجموع
	وثيقة أصيلة	نص مصدري	نص مرجعي		صورة فوتوغرافية	رسم	كاريكاتور	وثيقة مهيأة	دعامة مهيأة	
1	«%10» 01	00	«%90»09	00	01	00	00	«%50»05	«%50»05	21 [% 22]
	(47 %) 10 [20 %]			00	(06 %) 01 [05 %]			(47 %)10 [36 %]		(100 %)
2	«%17» 02	«%25»03	«%58»05	00	03	00	00	«%34»02	«%66»04	21 [% 22]
	(57 %) 12 [24 %]			00	(14 %) 03 [16 %]			(29 %)06 [21 %]		(100 %)
3	00	00	«%100»14	00	09	00	00	«%43»03	«%57»04	30 [% 31]
	(47 %)14 [28 %]			00	(30 %) 09 [47 %]			(23 %)07 [25 %]		(100 %)
4	00	«%36»05	«%64»09	00	06	00	00	«%40»02	«%60»03	25 [% 25]
	(56 %) 14 [28 %]			00	(24 %) 06 [32 %]			(20 %)05 [18 %]		(100 %)
المجموع	«%08»04	«%06»03	«%86»43	00	«%100»19	00	00	«%39»11	«%61»17	97
	(51 %) 50 [100 %]			00	(20 %)19 [100 %]			(29 %)28 [100 %]		(100 %)

جدول4: توزيع أصناف الوثائق والدعامات على عينة كتاب: الجديد في التاريخ

الوحدة	النصوص المكتوبة			الشهادات الشفهية	الدعامات الإيكونوغرافية			الوثائق والدعامات المهيأة		المجموع
	وثيقة أصيلة	نص مصدري	نص مرجعي		صورة فوتوغرافية	رسم	كاريكاتور	وثيقة مهيأة	دعامة مهيأة	
1	«%54»06	«%10»01	«%36»04	00	«%83»05	00	«%17»01	«%58»07	«%42»05	29 [% 24]
	(38 %) 11 [20 %]			00 [00 %] (00 %)	[20 %] 06 (21 %)			[35 %] 12 (41 %)		(100 %)
2	«%6»01	«%44»08	«%50»09		«%83»05	00	«%17»01	«%22»02	«%78»07	33 [% 28]
	(55 %) 18 [33 %]			00 [00 %] (00 %)	[21 %] 06 (18 %)			[26 %] 09 (27 %)		(100 %)
3	«%66»10	«%8»01	«%26»04		«%82»09	00	«%18»02	«%40»05	«%60»03	34 [% 29]
	(44 %) 15 [27 %]			00 [00 %] (00 %)	[38 %] 11 (32 %)			[24 %] 08 (24 %)		(100 %)
4	«%18»02	00	«%82»09		«%100»06	00	00	00	«%100»05	22 [% 19]
	(50 %) 11 [20 %]			[00 %] (00 %) 00	[21 %] 06 (27 %)			[15 %] 05 (23 %)		(100 %)
المجموع	«%34»19	«%18»10	«%48»36		«%86»25	00	«%14»04	«%41»14	«%59»20	118
	(47 %) 55 [100 %]			00 [00 %] (00 %)	[100 %] 29 (24 %)			(29 %) 34 [100 %]		(100 %)

ببليوغرافيا

الكتب المدرسية

- جماعة من المؤلفين، **الجديد في التاريخ**، دار نشر المعرفة، الرباط، 2007.
- جماعة من المؤلفين، **الشامل في التاريخ**، إفريقيا الشرق 2007.
- جماعة من المؤلفين، **في رحاب التاريخ**، مكتبة السلام الجديدة والدار العالمية للكتاب، 2014.
- **مراجع باللغة العربية**
- بدوي عبد الرحمان، **النقد التاريخي**، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة 4، 1981
- شاكر مصطفى **التاريخ، هل هو علم؟** عالم الفكر، 1974
- صهود محمد ، "الخريطة التاريخية، من التأصيل الإبيستمولوجي للمفهوم إلى تعريف الحدث التاريخي من منظور التأويل الجغرافي"، **المربي**، المجلة الجزائرية للتربية، العدد 18،
- العروي عبد الله ، **مفهوم التاريخ**، الجزء الأول، المركز الثقافي العربي، بيروت، البيضاء 1992
- فوكو ميشيل ، **حفريات المعرفة** ، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2005،
- وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي، المديرية المناهج، **التوجيهات التربوية والبرامج الخاصة بتدريس التاريخ والجغرافيا بسلك التعليم الثانوي التاهيلي**، نونبر 2007،

مراجع باللغة الفرنسية

- Dumoulin Olivier. « Document », In : André Burguière (Sous dir.) *Dictionnaire des sciences historiques* , PRESSES UNIVERSITAIRE DE France , 1986, pp. 204-205.
- Febvre Lucien. *Combats pour l'histoire*, Armand Colin, 1953.
- Genicot Louis. *Critique historique*, LOUVAIN-LA-NEUVE, 1979.
- Hassani Idrissi Mostafa, *Pensée historienne et apprentissage de l'histoire*, L'Harmattan, 2005.
- JOUTARD, "Histoire orale", in *Dictionnaire des sciences historiques*, André Burguière, (dir), Paris, 1986.

  ترجمة محمد حبيدة، **من أجل تاريخ إشكالي**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية القنيطرة، 2004.
- Langlois Charles V., Seignobos Charles, *Introduction aux études historiques*, Paris, 1898.
- LEDUC, J. MARCOS-ALVAREZ V., LE PELLEC J., *Construire l'histoire*. Collection didactique, Bertrand-Lacoste, 1994.
- Marrou Henri Iréné. *De la connaissance historique*, Editions du Seuil, 1975.
- Schnapp. A. « Archéologie », In : André Burguière (Sous dir.) *Dictionnaire des sciences historiques*, PRESSES UNIVERSITAIRE DE FRANCE, 1986, pp. 60-67.
- Veyne Paul. *Comment on écrit l'histoire*, Editions du Seuil, 1979 .

الشباب والجسد: سؤال الخضوع والتمرد في مرآة الثقافة الاجتماعية

عبداللطيف كداي
كلية علوم التربية

إن ما تراكم من إنتاج معرفي في موضوع الجسد من العصر اليوناني الى يومنا هذا كثير جدا لدرجة يصعب معه القيام بجرد شامل لهذا الزخم المعرفي بالنظر إلى شساعة وامتداد الحقول المعرفية التي تناولت هذا الموضوع لاسيما في المجالات ذات الصلة بالأدب والفلسفة، لكن في المقابل يبدو أن ما كُتب سوسيولوجيا هو جد قليل[1]، أي أن الاهتمام السوسيولوجي بالجسد جاء متأخرا بعض الشيء بالمقارنة مع الميادين المعرفية الأخرى.

كما أن الجسد كموضوع سوسيولوجي جديد لم ينل الاهتمام الكافي في الدراسات العربية على وجه التحديد، من جراء بعض التخوفات التي نلمسها لدى الباحثين والتي ارتبطت في غالب الأحيان بمبررات دينية وأخلاقية، شكلت في الواقع عائقا أمام التناول العلمي والجاد لهذا الموضوع خلافا لمجالات الأدب، مما ترك مفهوم الجسد ضحية رؤى دونية لم ترتق إلى اعتباره مفهوما مركزيا وأساسيا في فهم علاقة الانسان بذاته وبالآخر، لما يشكله هذا الجسد من وسيط حيوي في مختلف التفاعلات اليومية التي تنخرط فيها الذات.

إن هذه المساهمة ما هي إلا محاولة ضمن سياق اجتماعي وثقافي جديد تماما يحاول طرح سؤال الجسد في المجتمع المغربي والعربي عموما في إطار مرحلة جديدة من التعاطي العلمي مع هذا المفهوم. فالقراءات والمقاربات التي وظفها عدد من الباحثين في ميادين وحقول معرفية مختلفة أسهمت بلا شك في إرساء اللبنات الأولى للإشغال على الجسد كموضوع سوسيولوجي بامتياز، إذ أن مساهمة البحث

[1] هناك كتابات كثيرة بالطبع تنامي إلى حقول معرفية أخرى في الأدب والفن والتاريخ والأنثروبولوجيا.

السوسيولوجي في دراسة قضايا الجسد شكلت منعطفا مهما في البحث العلمي بشكل عام، وسلطت الضوء على قضايا لم تكن مطروحة من قبل. وهذا ما جعلنا نعاود طرح سؤال علاقة الشباب بجسده من منظور ثقافي، ومن صيرورة اجتماعية تتميز تارة بالخضوع وتارة بالتمرد، محاولين ربط هذه الثنائية ببعض العناصر التي قد تشكل محاولة أولية لتفسير بعض التمظهرات التي يحتل فيها الجسد صدارة الأحداث.

لكن قبلا، ما هو المدخل لمعالجة قضايا الجسد، ولماذا أصبح هذا الجسد مجالا رئيسيا لأنشطة المجتمعات في الوقت الراهن؟

1- أي مدخل لمعالجة قضايا الجسد:

لقد مر مفهوم الجسد من مرحلة طويلة من التفكير والتأمل الفلسفي منذ العصر اليوناني إلى يومنا هذا، من موضوع "يبدو تافها وفارغا بالنسبة للبعض إلى وسيلة لانبثاق الوعي لدى الفرد سواء كان واعيا بذاته أو العالم الخارجي... وهكذا سيصبح الجسد تدريجيا أهم من الجانب الباطني للإنسان، فهو سبيل تحديد الهوية والذاتية وبالتالي قيمة الفرد" (Raveneau, 2008). لقد اعتبر فلاسفة اليونان أن الجسد "متعفن" وأن الروح طاهرة، بل إنها هي من تحفظ للجسد طهارته لكنه حالما يتعفن فهي تغادره بالموت إلى نبعها الطاهر.

في الوقت الذي دافع فيه ديكارت عن وحدة الجسد والفكر التي بموجبها تتحدد جواهر الأشياء، إذ أن الجسد لوحده يبقى عاجزا عن المعرفة، وهكذا منح ديكارت من خلال كتابه: تأملات ميتافيزيقية، عن أسبقية الفكر المتسم بالحرية والإرادية والذي يتحكم في الجسد (ديكارت، 1988).

ومع اسبينوزا بالتحديد سيفتح الباب على مصراعيه للتفكير الفلسفي في الجسد بمعزل عن ثنائية الروح والعقل التي ظلت سائدة منذ الفكر اليوناني،إذ "يعود نسيان الجسد في الفكر الإنساني حسب اسبينوزا إلى النزعة العقلانية أو المثالية التي كانت تهتم بالفكر والروح وتحتقر الجسد والغرائز" (Spinoza, 1993)، فالجسد إذن وفق هذه الرؤيا ليس مجرد أداة خاضعة للفكر، بل هذا الأخير هو أداة الجسد، ومن ثمة وجب التمييز حسب اسبينوزا بين ما يستطيع الجسد فعله وما لا يستطيع فعله طبقا لقوانين الطبيعة التي تخضع للضرورة.

وهكذا، تمت إعادة الاعتبار للجسد بالتدريج بتجاوز كل الطابوهات التي لازمت تاريخيا أشكال التفكير التي كانت سائدة حول الجسد، وصولا إلى المرحلة التي أعلن فيها نيتشه: " إنني بكاملي جسد لا غير، وما الروح إلا كلمة أطلقت لتعيين جزء من هذا الجسد." (نيتشة، 1985، ص. 52).

بهذا المعنى تناولت الفلسفة المعاصرة الجسد مستندة بشكل كبير على هذا التراث الفلسفي التي أثرى الكثير من الحقول المعرفية منها السوسيولوجيا بالأساس، التي لم تجد في بدايات البحث في هذا الموضوع إلا الاسهامات الفكرية التي تركها لنا هؤلاء الفلاسفة، وبالتالي كان المدخل الطبيعي لدى السوسيولوجيين في تناول الجسد مدخلا فلسفيا خاض بدوره في النقاش الفلسفي الدائر، لكن بمحاولات نحث أسلوب مغاير واعتماد مقاربة منهجية ملائمة لسبر أغوار هذا الجسد كظاهرة اجتماعية متميزة.

إن تأثير الفلسفة بدا واضحا في الأعمال الأولى التي تناولت موضوع الجسد، خاصة لدى بعض الباحثين من أمثال: مارسيل موس، ومشيل فوكو، وهربرت ماركيز. بمعنى أخر أن المدخل السوسيولوجي لم يتبلور بشكل واضح إلا في مرحلة السبعينات والثمانينات من القرن الماضي بدءا بأعمال كل من نوبرت إلياس، جون بودريار وبيير بورديو...[2] مما فتح الباب على مصراعيه لظهور فرع جديد في السوسيولوجيا يهتم بقضايا الجسد على يد الأمريكي جونثان تورنر والفرنسي دافيد لوبروتون، هذا الأخير الذي اعتبر "أن التفكير في الجسد هو طريقة معينة للتفكير في العالم والعلاقات الاجتماعية، فأي خلل يدخل على صورة الجسد هو خلل في تناغم العالم" (Breton, 2008, p. 21)

وتعكس هذه النظرة طفرة حقيقة في التعامل مع موضوع الجسد الذي كان غائبا تماما في السوسيولوجيا الكلاسيكية، بمعنى أن هذا التخصص المعرفي نادرا ما ركز بطريقة ثابتة على الجسد بوصفه مجالا مستقلا للبحث. إذ انشغل على الدوام ببنى ووظائف المجتمعات وطبيعة الفعل البشري. وجاء تناول بعض السوسيولوجين الأوائل للجسد ضمنيا، كما نزع البعض إلى التركيز على جوانب منتقاة من الجسدية البشرية وعلى قضايا بعينها من قبيل اللغة والوعي دون ملاحظة أن هاتين القدرتين هما قدرات جسدية. فكما أوضح Norbert Elias أن القدرات المتعلقة باللغة والوعي

[2] هذا لم يأت عبثا بل جاء نتيجة لثورة الشباب في أمريكا وأوربا، ثورة ضد النماذج القديمة من التفكير والثقافة القديمة وبروز موجات الشباب المتمرد الخ...إضافة إلى بروز الجسد من خلال الاشهار وسوق اللباس على نطاق واسع.

متضمنة في الجسد وتشكل جزءا منه ومرتبطة تمام الارتباط به. فأجسادنا هي التي تمكننا من الفعل والتدخل في تيار الحياة اليومية وتغييره (Bihr, 2014).

فالجسد إذن، في القرن العشرين ومن خلال أبحاث هؤلاء السوسيولوجيين، هو مرآة للحياة الاجتماعية وسلوكات الأفراد وتفاعلاتهم وانعكاس للثقافة الاجتماعية، بمعنى لم يعد هناك شيء طبيعي في الجسد، ذلك أن الرؤية الجسدية تتنوع بتنوع الثقافات، وهكذا لم يعد الجسد حكرا على البيولوجيا لوحدها، بل هو بناء اجتماعي وثقافي تتجلى فيه شتى مظاهر التفاعل الإنساني، إذ برهن Norbert Elias على أن مجموعة من السلوكات التي قد تبدو طبيعية للغاية إلا أنها ثقافية واجتماعية بالأساس، من خلال تجلياتها كقواعد معينة تتحكم في هذا الجسد، وتجعله يمارس نوعا من الرقابة الذاتية من خلال اللباس وتعلم أساليب التصرف والتحرك والتعامل بالجسد وعبر هذا الجسد(Bihr, 2014) .

أما Bourdieu فيشير من خلال مفهومه المركزي Habitus أن هيئة الجسد تترجم وتعبر عن هابيتس كل فرد، بمعنى أن التاجر والفلاح والموظف... ليس لهم نفس الهيئة الجسدية، "فخطاطة الجسد مزودة بنظرة مكتملة إلى العالم الاجتماعي، وبفلسفة مكتملة للشخص والجسد الخاص."(Hanifi, 2003) .

هكذا إذن تطور تدريجيا الاهتمام بالجسد، ليصبح فرعا سوسيولوجيا قائم الذات، ولعل هذا ما يفسر إلى حد بعيد رواج موضوعات الجسد بشكل متصاعد في السوسيولوجيا، خاصة إزاء التحولات التي طرأت على بنية الأنظمة الاجتماعية الرأسمالية المتقدمة التي بوأت الجسد مكانة خاصة في النظام الاستهلاكي أمام تقدم السن ومعدل الأعمار لدى سكان الغرب، ونسوية "الموجة الثانية"، وبالتالي انعكس كل ذلك على النظرة إلى الجسد الذي تحول إلى رهان اجتماعي.

2- الجسد من منظور المجتمع الاستهلاكي:

إن المتأمل في حجم الاستثمارات الموجة إلى الاهتمام بالجسد من كل النواحي لا يسعه إلا أن يدرك هذا الارتباط القوي للاقتصاد المعاصر بالجسد وحاجياته. فالجسد حسب Turner أصبح المجال الرئيس للنشاط الاقتصادي والاجتماعي والسياسي أيضا (Laufer، 2005)،مما أخضع هذا الجسد لمتطلبات المجتمع الاستهلاكي، بمعنى آخر انتصار النموذج الرأسمالي في التسويق للجسد بطريقته وأسلوبه ضدا على

دعوات عدد من المفكرين الذين نادوا بتحرير الجسد، ف Herbert Marcuse مثلا وجه انتقادا كبيرا للحضارة في بنيتها الحالية والتي تدفع بالإنسان إلى نوع من الاغتراب، فالاغتراب من منظور Marcuse قضية بنيوية في صلب الحضارة الحالية ومن تركيبتها الحتمية، ومن هنا نجده يصف هذه الحضارة وكيف أنها قضت على الليبيدو: "إن زمن العمل الذي يمثل الجزء الأكبر من حياة الأفراد هو زمن مرهق، إذ أن العمل الإنسلابي معناه غياب الارتواء ونفي مبدأ اللذة " (Giami, 2002) . هنا يكون الانسان في أوج اغترابه حيث أنه يمارس أعمالا لا تنسجم مع تطلعاته الجسدية.

إن المجتمع بعد الصناعي الحالي هو مجتمع السيطرة الكلية، فهو يملك القدرة على امتصاص كل طاقة رفض لدى أفراده، وقادر على تعبئة كل طاقاتهم الجسدية لحمايته، فالحاجات التي يوفرها مجتمع التكنولوجيا المعاصرة حسب Marcuse هب حاجات وهمية تساهم في مزيد من اغتراب الانسان ذي البعد الواحد، ومزيد من استمرارية هذا النظام المجتمعي الذي يدرب أفراده تدريجيا على الاستغناء على الحرية بوهم الحرية.

كما أشار الباحث في ذات السياق من خلال مناقشته لقضية التحرر الجنسي في كتابه: "الإنسان ذو البعد الواحد" إلى ضرورة تخليص الغرائز الجنسية من التحرر الزائف الذي تمارسه الرأسمالية، التي أخضعت الغرائز الجنسية لقيم السوق وجعلها سلعة في نمط الاستهلاك الرأسمالي، الأمر الذي دفع Marcuse إلى انتقاد إبراز المفاتن الجنسية للجسد في عالم الشغل وفي علاقات العمل لتنافيه مع القيم المؤطرة للشغل(Marcuse, 1968) .

وهكذا إذن، يمكن أن نتقاسم مع Jean Baudrillard ما ذهب إليه في كتابه: "مجتمع الاستهلاك"(Baudrillard, 1986) إلى أن الجسد أصبح الأسطورة الموجهة لأخلاق الاستهلاك، بل إنه أجمل مواضيع استهلاكنا في الوقت الحاضر، فبعد عدة قرون من "العفة" أصبح رأسمالا يتم الاستثمار فيه بقوة، وأصبح موضوع نرجسية وحظوة اجتماعية بامتياز، ذلك أن مجتمع الاستهلاك بات يفرض على الأفراد الاعتناء بجسدهم من خلال العمل على اجتناب ومحاربة كل ما يعيق حركته الخارجية والداخلية، أي المادية والمعنوية، والعمل أيضا على تقويمه ومعالجته.

إنها إذن حسب Baudrillard نرجسية جديدة ترتبط بالجسد، يمكن تجسيدها بتقنية أو بأشياء بعينها أو بحركات أو علامات معينة، إذ تحرص هذه النرجسية على التلاعب بالجسد كقيمة. إنها اقتصاد واستهلاك موجه للجسد، يتأسس على مخطط للتفكيك الجنسي والرمزي، وعملية هدم وإعادة بناء موجه للاستثمارات، وإعادة تمثل للجسد وفق نماذج دقيقة ومحددة.

فالجسد من هذا المنظور هو إعادة استثمار نرجسي يتم تمثله وفق مبدإ معياري قائم على إنتاج المتعة، ويُدار باعتباره ميراثا، ويتم التلاعب به كدال على النظام الاجتماعي. إلا أن الأمر يتعلق بصيرورة تقديس جسد ذي بعد وظيفي بحت، أي جسد يجد أهميته وحضوره في احتفاء المجتمع الاستهلاكي به. أما الخصائص المحورية لهذا النوع من الأجساد فتتمثل في الجمالية الإيروسية والشبقية، باعتبارهما تؤسسان الأخلاق الجديدة للعلاقة بالجسد، وتتجليان في قطبين رئيسيين: ذكوري (الصلابة والقوام المنحوت)، وأنثوي (الأناقة والإغراء) (رابح، 2009).

ينغي التأكيد على اهتمام المجتمع الاستهلاكي بالجسد يتجلى بالأساس في ثلاثة مجالات حيوية: الصحة La santé، الجمال La beauté، والجنسانية la sexualité، وهذا بالضبط ما ضاعف حجم الاستثمارات في هذه المجالات حتى أصبح الجسد مشروعا قابل لإعادة البناء وفق تصميمات صاحبه وما يراه من تحسينات ضرورية لترويض هذا الجسد والحفاظ على مظهر مناسب، فالجسد بوصفه موردا شخصيا ورمزا اجتماعيا يبعث برسائل عن هوية الشخص الذاتية، في هذا السياق، يصبح هذا الأخير كينونة طيعة يمكن تشكيلها وشحذها عبر ما يبدي صاحبه من حرص وما يبذل من جهود.

إن نظام الحمية للحفاظ على الرشاقة وتجنب بعض الأمراض، وفتح أماكن وفضاءات لممارسة الرياضة، والجراحة التجميلية، والأدوية المساعدة على قوام أفضل... كلها منتجات جديدة تكرس مفهوما مغايرا للجسد لم يكن حاضرا من قبل، كما أنها في ذات الوقت وسائل/ سلع ابتكرها المجتمع الاستهلاكي من أجل جعل أجساد الأفراد جديرة بالثقة ضمن ما سماه Goffman ب"عرض الذات" (Goffman, 1973) في إطار مشروع هوية جسدية جديدة تجعل الإنسان قادرا على التفاعل الإيجابي مع الآخرين بناء على الصورة الإيجابية التي يحملها عن جسده، "ذلك أن مظاهرنا الخارجية لا تؤثر فقط في سلوك الآخرين تجاهنا، بل إنها تؤثر فينا نحن

أيضا، إلى درجة أن رضى الأفراد عن أنفسهم يرتبط ارتباطا يكاد يكون آليا بالصورة التي يحملونها عن أجسادهم" (رابح، 2009، ص. 182).

وهكذا أصبح الفرد في المجتمع الاستهلاكي أكثر تمركزا حول متطلبات جسده أمام سطوة المنتجات الاستهلاكية، كما أن التمثل الاجتماعي قد عرف تحولا كبيرا، ذلك أن ميلاد المخيال الاجتماعي الجديد للجسد قد أدى إلى ظهور نرجسية أكثر في المجتمعات الحالية تؤشر على نمو مضطرد للفردانية على حد تعبير Lipovetsky الذي أطلق على هذا التحول ب "النيوفردانية من النوع النرجسي" (Lipovetsky, 2006).

3. جسد الشباب بين الخضوع والتمرد

سنركز في الجزء الثاني من هذه المقالة على توصيف علاقة الانسان والشباب تحديدا بجسده ضمن ثنائية الخضوع والتمرد كمدخل أساسي لفهم الكثير من التمظهرات الاجتماعية لسلوكات الأفراد، باعتبار أن العبور من الطبيعة إلى الثقافة هو عبور يتم بالجسد وعبره ومن أجله، فالجسد بتعبيرFoucault ليس مجرد كيان طبيعي، وإنما هو كيان ينتج اجتماعا من خلال نظم المعرفة والسلطة، بحيث يصبح جسدا لينا طيعا تحت تأثير قوى متعددة ساهمت في إخضاعه وترويضه.

إنها عملية طويلة تتم عبر آلية التنشئة الاجتماعية الأولية داخل الأسرة تحديدا كأول سيرورة اجتماعية في البناء الهوياتي للفرد ضمن ثقافة اجتماعية معينة لها منظورها الخاص للجسد، تدفع الطفل والمراهق في مرحلة لاحقة إلى استدماج الأدوار الاجتماعية الممنوحة للجسد لينخرط في سيرورات الفعل والإنتاج والتفاعل الاجتماعي.

3-1 اللباس أولى جدلية الصراع لثنائية الخضوع والتمرد الجسدي

لا يجادل أحد في كون اللباس أحد المظاهر البارزة في صراع الترويض الذي أشار إليه العديد من الباحثين، فثقافة الجسد لا تقف في حدود علاقة البدني بما هو نفسي وعقلي، بل تتجاوز ذلك إلى ما هو مظهري عام من قبيل اللباس والعري والوشم... ومن ثمة يجب التركيز في هذه المقاربة أيضا على السياق الاجتماعي-التاريخي للجسد كحامل للإشارات والرموز، إذ ينبغي فهمه كتعبير عن المخزون الثقافي العام للشعوب، " فكون جسدنا معطى ثقافيا بفعل الواقع، فهو نص، سواء أردنا ذلك أم لا، فمن خلال جسدنا، إشاراتنا، وضعياتنا الجسمية، ألبستنا، حلينا... نتيح

القراءة، فالجسد مهما يكن من أمر، موضوع عمليات حل الشفرات. فلغة الجسد تتيح لكل فرد معرفة المجموعة التي ينتمي إليها والوضعية التي يشغلها فيها" (Dupouy, 1981, p. 14).

إن تناول الجسد بهذا المعنى كنص مفتوح على القراءة وفك الرموز والشفرات الثقافية، من شأنه أن يحيلنا على حضور لغة ما داخله تشتغل لقصدية معينة، إذ تشترك استعمالات الجسد واللغة والرمز في كونها موضوعات متميزة للمراقبة الاجتماعية.

صحيح أن اللباس في أول الأمر كان يؤدي وظيفة معينة تبعا للحاجات الإنسانية التي تغيرت بتغير المناطق الجغرافية والمناخ والمراحل التاريخية التي عرفتها البشرية إلى يومنا هذا، فهو بالإضافة إلى المسكن "مظهران يعبران على أن مجتمعا ما وجد وتأقلم لتلبية حاجة أساسية تشبه بالضبط حاجة الإنسان للغذاء والجنس، فقد استعملهما الانسان للدفاع عن نفسه ضد قساوة الطبيعة وهمجية الآخر، فهما يعتبران من أكثر المظاهر الحضارية وأدقها لتحديد مرحلة زمنية ما" (المصباحي، 2001). لكن استعمالات اللباس قد عرف، إسوة بباقي المؤشرات الثقافية، العديد من التطورات على مدى هذا التاريخ الطويل، ليصبح دالا ثقافيا، "فاللباس أداة تجعل الجسد رمزا، ففي المجتمعات التقليدية تكون الشفرات الثيابية جد دقيقة، دالة على الجماعة التي ينتمي إليها الفرد والمكانة التي يحتلها، إنه من خلال طريقتي في اللباس أتموقع ضمن رقعة اجتماعية معينة" (إبراهيم، 2009، ص. 123).

وبهذا المعنى يصبح الجسد عبر أداة اللباس حاملا لثقافة اجتماعية معينة وخاضعا لها، فالمرأة التي ترتدي البرقع خلافا للمرأة التي تغطي شعرها فقط تحيل على منظومة معينة من التفكير، وخاضعة لتصور معين يفرض عليها هذا النوع من اللباس، كما هو الأمر بالنسبة للشاب الذي يحرص على ارتداء اللباس الفضفاض والطويل، فهو لا يشبه في شيء ذلك الشاب الذي يرتدي ألبسة ضيقة وقصيرة أو الشابة التي ترتدي التنورات القصيرة. إننا أمام ثقافتين مختلفتين تحاول الأولى إخفاء الجسد وحجبه "وستره"، في حين تحتفي الثانية بالجسد وتوفر له اللباس الحامل لهذه الدلالة.

في مقابل هذا الخضوع، شكل اللباس أيضا آلية من الآليات التي اعتمدتها تيارات اجتماعية معينة من أجل التمرد بتوظيف الجسد ، والتعبير عن نوع من الاحتجاج والرفض للثقافة الاجتماعية السائدة، ويكفي أن نشير هنا إلى التأثير الذي مارسته موجة "الهيبيزم" في عقد السبعينات على شباب العالم بأسلوب لباسهم وتسريحات

شعرهم، فخلخلوا بذلك الدلالة التي اتصف بها اللباس على مستوى علاقته بالثقافة الاجتماعية. ونفس الأمر ينطبق اليوم على لباس "الهيب الهوب" الذي يشكل تمردا واضحا على النمذجة السلوكية التي أرساها المجتمع المعاصر حول اللباس.

ومن خلال اللباس يحاول الشباب أن يبرز كقوة احتجاجية تحمل ثقافة مضادة بأشكال جديدة في السلوك والتفكير والمعتقد رافقتها تعبيرات ثقافية فنية خاصة في المجتمعات بعد المصنعة "التي بلغت قدرا عاليا من التعقيد وسمحت أكثر من غيرها بظهور ثقافات فرعية شبابية، وببروز حركات شبابية ثقافية تلقائية أو منظمة تفاعلت مع الأحداث الكبرى التاريخية وساهمت فيها" (الزيدي، 2005، ص. 73).

2-3 العري والتمرد على اللباس: عودة للزمن الأول

إن كان العري يشكل في الثقافة الغربية تحديدا أحد الثوابت المدرسة الطبيعية (أتباع الطبيعة Naturisme) التي تتبنى مفاهيم فلسفية مستمدة من الطبيعة، بحيث لا تنظر للعري والتعري نظرة حسية بمعنى الإثارة، وإنما الأمر مرتبط فلسفيا بالرغبة في الحياة الطبيعية تماما والبريئة من وجهة نظر المنتمين لهذا الاتجاه. إلا أن موجات العري الجديدة التي شهدتها البشرية ماهي إلا "رد فعل على الحضارة الغربية المعاصرة التي راكمت زيفها على الانسان، فأضحى اللباس واحدا من الفواصل السميكة التي تعمق الفوارق بين البشر، وتمحو ما هو طبيعي فيهم. وقد كان الموقف متطرفا لدى بعض التيارات التي رأت اللباس طابوها، فتدفقت موجة من العري الصارخ تغزو شوارع أوربا والولايات المتحدة الأمريكية مع مطلع السبعينات" (إبراهيم، 2009، ص. 125).

وحاليا يقف العالم مشدوها أمام امتدادات حركة فيمن FEMEN النسائية والتي أصبحت مظاهر تعري نسائها وأشكال الكتابة على جسد النساء المحتجات عابرا للقارات، ومنفتحا على قضايا نسائية جديدة لم تكن مطروحة في بداية نشأة المنظمة سنة 2008 بأوكرانيا[3].

من هنا يتخذ التحرر من اللباس بعدا احتجاجيا يعبر عن تمرد الجسد ضد كل القوالب المجتمعية التي فرضت عليه إلزامات ومحظورات، "فبما أن اللباس يعلن

[3] حركة فيمن FEMEN النسائية تأسست سنة 2008 في مدينة كييف بأوكرانيا على يد المناضلة النسائية أنا هيتسول Ana HUTSOL وهي الرئيسة الحالية للمنظمة، وعرف عن هذه المنظمة دفاعها الشرس عن قضايا المرأة وحقوقها في العالم بأسره بمقاربة علمانية محضة معلنة معارضتها الصريحة للأديان. تعتمد أساسا في احتجاجاتها على أسلوب الكتابة على صدر عاري مع التظاهر في الشارع العام أو أمام المقرات المعنية.

إدماج الفرد داخل مجتمع ما، فحري أن يكون التعري المكان المدمر لانكشاف جسد متوحش، أعيد إلى طبيعته الأولى" .(Dupouy, 1981, p. 100)وهكذا يمكن القول أن التمرد على اللباس اتخذ صيغا شتى: إما أنها نابعة من اشتهاء إيروسي للجسد، وإما من رؤية فلسفية عميقة تعبر عن حنين الانسان إلى عهده الأول، لكن إلى أي حد أفلح العري في استعادة الاحساس المفقود بحرية الجسد؟ واسترجاع الشعور الفطري بطبيعة جسده قبل أن يحتله اللباس؟

طبعا حاول الكثير من الباحثين تقديم أجوبة على هذا السؤال، وخلصوا في النهاية إلى أن حالة العري الأولى التي عرفها الجسد الانساني تظل حالة فريدة يستحيل استرجاعها، لأنها تشكل درجة "الصفر" في الثقافة، فبمجرد أن تزحف الثقافة على شخصية الانسان فإن معطياتها المحسوسة والمجردة تحفر في عمق الكيان الإنساني لاغية بذلك حالة الفطرة والطبيعة.

لكن ما يهمنا هنا بالذات ما يرتبط بالعري ذي البعد الاحتجاجي الصرف الذي يمارسه الشباب كرد فعل على كل أشكال التضييق والحصار التي يتعرض لها، يكفي أن نذكر بمواقف العديد من الشباب الذين يتعرون جزئيا أو كليا في مواجهة السلطة، كرفض معلن لما تمارسه هذه السلطة من تعنيف وحرمان وإقصاء وتهميش وتدجين في حق الجسد، ولعل هذا ما تطرق إليه بالتفصيل Foucault في كتابه "المراقبة والمعاقبة" (فوكو، 1990) الذي عمل من خلاله على تقديم تحليل علمي للجسد مفككا بالتفصيل الآليات والنظم المتعددة التي ساهمت في إخضاع الجسد، كاشفا عما يكبل هذا الجسد ويقيده، لأن ذلك في رأيه تكبيل للعقل، ففك أغلال الجسد من آليات التوجيه والنفي والترويض هو إطلاق سراح العقول من سراديب الحجر والزيف .

إن العري إذن وفق هذا المنظور تمرد واحتجاج وحامل لرسالة ولخطاب إلى المجتمع وإلى السلطة تحديدا، فعندما تقف نساء حركة "فيمن" عاريات يكون ذلك في الغالب للتعبير عن موقف رافض في وجه السلطة والمؤسسات المعنية، إنه مثال حي على دخول الجسد إلى متاهات الخطاب السياسي، ورفض هذا الأخير كل محاولات التدجين التي مورست عليه في السابق.

3-3 الوشم ذاكرة الجسد الحية

إذا كان اللباس قد شكل، كما أوضحنا آنفا، أحد الوسائل التي وظفتها المجتمعات من أجل إخضاع الجسد للتقاليد والأعراف المجتمعية، فالوشم أيضا لازم اللباس وكان عنصرا مكملا في بعض الثقافات، فبين "الجسد – الجلد" و"الجسد- اللباس" يوجد

جسد ثالث وهو: "الجسد – الوشم" الذي رافق كل مراحل الإخضاع التي تعرض لها الجسد، " فكم كان على الجسد أن يسجل حتى في لحمه العقوبات والإكراهات التي تفرضها المقاربة الاجتماعية" (فوكو، 1990، ص. 96).

للوشم ذاكرة تاريخية طويلة جدا، ارتبط بعضها بمعتقدات ضاربة في القدم، كما أنه رافق كل المجتمعات الإنسانية في مراحل تطورها المختلفة، فقد كان "وسيلة" بعض الشعوب لصد مخاطر الطبيعة، أو طلب النسل، أو نوع من الرقية لصد أذى العين والحسد... و" هكذا يشتغل الوشم على واجهتين ثقافيتين: إما لعلة تزيينية محضة، أو لعلة الترتيب الهرمي في المجتمع، أو لعلة علاجية محضة، أو كلها مجتمعة. وأحيانا وُظف الوشم لقصدية تعذيبية أو جزائية كما هو الحال بالنسبة إلى السجناء أو العبيد، أو كشفرة تواصل بين القراصنة" (إبراهيم، 2009، ص. 129).

ويستهوي الوشم الشباب بصفة خاصة أمام تزايد أشكاله ورواجه بين المشاهير (فنانون – لاعبون...)؛ إذ يشكل ظاهرة جديدة تسترعي الانتباه، تطورت بشكل لافت تماشيا مع الموضة والأزياء، وخضعت للمتطلبات الجمالية للجسد كأشكال مكملة للجوانب التي يراها الشاب ضرورية لإضفاء نوع من التناغم على جسده. كما امتد الوشم إلى المجال الحميمي ليعبر لدى البعض عن رباط بين العاشقين، حيث لا يتوانى المحب عن كتابة اسم حبيبته أو رسم صورتها على جسده كدلالة على حبه لها وولعه بها، لأن ما يُكتب وما يُرسم يصعب إزالته.

إن هذا الاحتفاء بالوشم هو محط نقاش وجدال بين من يرى أن التصرف في الجسد من خلال الكتابة والرسم يدخل في نطاق تملك الشخص لجسده وحريته في التصرف فيه، وبالتالي هي عملية تحرير للجسد، في المقابل يرى آخرون أنه نوع من "الاضطراب النفسي" وتقليد أعمى للنجوم، من دون الغوص في الدلالات التي تحملها هذه الرسوم والكتابات على الأجساد.

لكن مع ذلك لا يجب أن نغمض أعيننا عما يحمله هذا الوشم من بعد تمردي واضح لدى بعض التيارات الاجتماعية، يكفي أن نشير إلى الخرائط الجسدية: أي ذلك الحفر العنيف على الجلد بآلات حادة حتى تنزف الدماء بغزارة[4] كنوع من الاحتجاج الذي يمارسه بعض الجانحين في المؤسسات الإصلاحية أو داخل السجون للتعبير عن سخطهم إزاء وضعيتهم. إنه بالتأكيد وشم مختلف مؤلم جدا وحاد، يرمز إلى نوع من

[4] تتم هذه العملية عن طريق غرس الآت حادة وجرها على شكل خطوط متقاطعة على مستوى الدراع أو الصدر.

التحدي وعدم الاكتراث لما قد يحصل لهذا الجسد من آلام وتشوهات... في سبيل إيصال رسالة جسدية إلى الآخر الذي يمثل في الغالب السلطة.

إنه حكي من نوع آخر مختلف، وحكي غير مألوف، قد لا نلمس فيه بالضرورة ذلك البعد الجمالي، إنه استحضار لما مورس على هذا الجسد من تعذيب عبر تاريخ طويل في سبيل التمتع بالحرية.

خلاصة:

إن الجسد في النهاية لا يمكن أن يكون مجرد معطى بيولوجي محض خاضع لمتطلبات الطبيعة، إنه نتاج ثقافي اجتماعي أيضا وثيق الصلة بالقواعد والقيم الاجتماعية المشتركة للمجتمعات الانسانية. فالجسد هو بوابتنا إلى هذا العالم، إذ من خلاله يتمكن الفرد من التعبير عن ذاته وعن العالم المحيط به، مما يجعل منه حدثا ثقافيا وبنية رمزية دالة تجمع ما بين الطبيعة والثقافة، فكما أوضحنا من قبل، فالعبور من الطبيعة إلى الثقافة هو عبور يتم بالجسد وعبره ومن أجله، فهناك انتقال لهذا الجسد من بنيته البيولوجية إلى معطى ثقافي وواقعة اجتماعية...

ولا شك أننا ندرك الآن أهمية مقاربة موضوع الجسد سوسيولوجيا، لاسيما عندما نقرنه بالتحولات العديدة، وما مورس هذا الجسد عبر التاريخ الإنساني الطويل من قهر وعنف واحتواء... وتظل كل المحاولات الحالية في الدراسات والأبحاث العربية حول الجسد، رغم كثرتها، غير كافية لإعادة الاعتبار للجسد في الفكر والثقافة العربيين، ومن ثمة هناك حاجة أكثر إلى دراسات وأبحاث علمية تتعامل مع الجسد بمنظور منفتح يستحضر كافة الأبعاد الفكرية والفلسفية والفنية والإبداعية... لمعالجة إشكالية الجسد وطرح كل القضايا المرتبطة به بعيدا كل البعد عن هيمنة إديولوجية معينة تحاول إخفاء هذا الجسد ونبذه واحتقاره واستغلاله...

بيبليوغرافيا

بالعربية :

- *إبراهيم الزهرة.(2009). الأنثروبولوجيا والأنثربولوجيا الثقافية: وجوه الجسد. النايا للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق. سوريا.*
- ديكارت ريني. (1988). *تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى.* (ترجمة كمال الحاج، المترجمون) بيروت: سلسلة زدني علما، منشورات عويدات.
- رابح الصادق (2009). ضريبة السعادة: الإشهار وتوثين الجسد. في مجلة عالم الفكر، عدد 4 المجلد 37، يونيو 2009، الكويت: المجلس الوطني للقافة والفنون والآداب. ص. ص. 169-207.
- الزيدي المنجي. (2005). *الدخول إلى الحياة.* منشورات تبر الزمان، تونس.
- فوكو ميشيل. (1990). *المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن.* (ترجمة علي مقلد، المترجمون) بيروت: مركز الإنماء القومي.
- المصباحي أحمد. (2001). المسكن الريفي. *مجلة مقدمات، المجلة المغاربية للكتاب*(عدد 21). إيديف، البيضاء.
- نيتشة فريديريك. (1985). *هكذا تكلم زرادشت.* (ترجمة علي مصباح) منشورات الجمل.

بالفرنسية:

- Baudrillard Jean. (1986). La société de consommation : Ses mythes, ses structures. Paris : Ed. in Folio.
- BIHR Alain (2014) : La civilisation des mœurs selon Norbert Elias, In classiques des sciences sociales, bibliothèque numérique, disponible en site web : http://classiques.uqac.ca/contemporains/bihr_alain/civilisation_des_moeurs/civilisation_des_moeurs.pdf
- Chenet-Faugeras Françoise & Dupouy Jean-Pierre .(1981). Le corps. Paris : Ed. Larousse, Collection « Idéologies et sociétés ».
- Fournier Laurent-Sébastien et Raveneau Gilles. (2008) . Anthropologie des usages sociaux et culturels du corps. Journal des anthropologues [En ligne],N° 112-113, Ed. Association française d'anthropologues, PP.9-22.
- Giami Alain. (2002). Eros et civilisation de Herbert Marcuse. Simone Bateman. Séminaire du CERSES, Apr 2000, Paris, France. CERSES / CNRS, Volume 3, pp.61-80. Cahiers du CERSES. Disponible sur site web : https://hal.archives-ouvertes.fr/inserm-00519284/document
- Goffman Erving. (1973). La mise en scène de la vie quotidienne : T. 1 La Présentation de soi. Éditions de Minuit, coll. « Le Sens Commun ».

- Kitabgi Sylvène & Hanifi Isabelle (2003), la sociologie et le corps : Généalogie d'un champ d'analyse, In « Le corps sens dessus dessous : Regards des sciences sociales sur le corps, sous la direction de Laure Ciosi-Houcke & Magali Pierre, Ed : L'Harmattan. PP. 13-67.
- Laufer Eglé. (2005). Le corps comme objet interne. In revue adolescence (n°52), PP. 363-379. DOI 10.3917/ado.052.0363.
- Le Breton David.(2008). La sociologie du corps. Coll. « que sais-je ». Paris : PUF.
- Lipovetsky Gilles. (2006).Le Bonheur paradoxal : essai sur la société d'hyperconsommation, Paris : Gallimard, coll. « NRF Essais ».
- Marcuse Herbert. (1968). L'homme unidimensionnel, Paris, Éditions de Minuit.
- Spinoza Baruch (1993) : L'Éthique, traduite par Armand Guérinot, est parue aux Éditions d'art Édouard Pelletan, à Paris, en 1930. Paris : Les Éditions Ivrea , disponile sur site web : http://classiques.uqac.ca/classiques/spinoza/ethique/ethique_de_Spinoza.pdf